٥٠٤
504
HARLEQUIN
دار م. النحاس

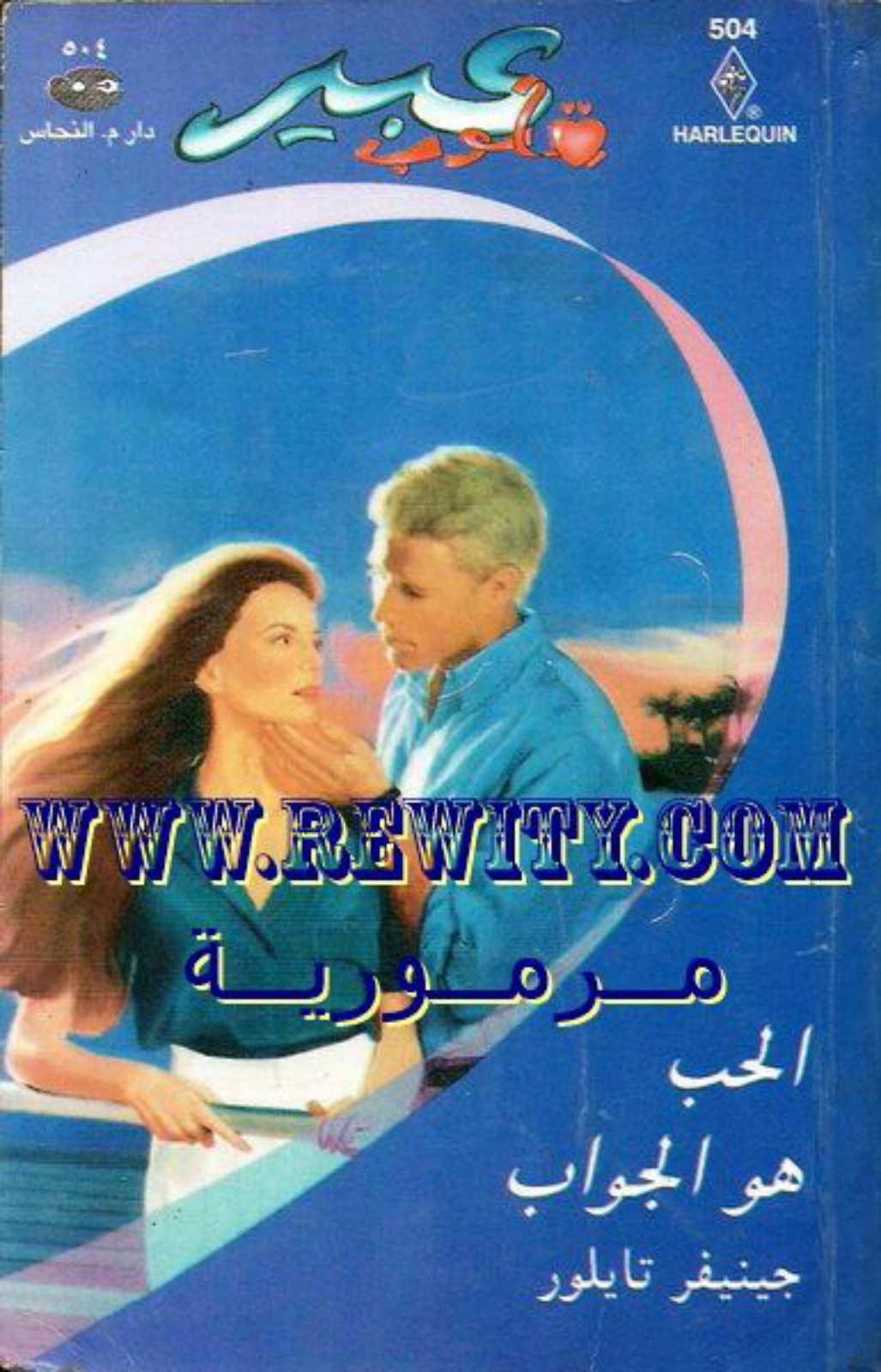

WWW.REWITY.COM

مرمورية

الحب هو الجواب

جينيفر تايلور

الحب هو الجواب

جينيفر تايلور

كانت سارة مارشال معلمة جيدة تشعر بالمسؤولية، وهي تعرف ذلك عن نفسها، فكيف يجرؤ السيد جيمس ماك ألبستر على اتهامها بعدم الأهلية؟ كانت تعلم أنها تعرف ابنته كاترين أكثر مما يعرفها هو في بعض النواحي ولكنه مع هذا، هددها بأنه سيسعى جهده ليمنعها من مواصلة التعليم. ثم أصر على أن ترافقه في رحلة التفتيش عن ابنته. لقد كانت هي تريد حقاً العثور على كاترين ولكنها لم تشأ أن تكون قريبة من جيمس. ولكن هل يدوم هذا الشعور؟

«إنك لست سوى عانس محبطة»

كلا، إنك مخطىء يا سيد ماك أليستر. إنني لا أملك تصورات شاعرية، وإنما كوابيس. هل تريد أن تعرف السبب؟ هل تريد حقاً أن تعرف لماذا لم أضع مثل هذه الأفكار في رأس ابنتك؟ ولماذا لم أكن لأضع خطة لاجتذابك؟»

٥٠٤

khouloub Abir 504

الحب هو الجواب

جينيفر تايلور

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

جينيفر تايلور

ولدت «جينيفر تايلور» في «ليفربول» انكلترا، وما زالت تعيش هناك في الضاحية الشمالية الغربية التي تبعد عدة اميال خارج المدينة. وكانت الكتب هي عشقها الدائم. وهكذا كان من الطبيعي أن تختار مهنة لها، أمانة مكتبة. وكان هذا اختياراً حكيماً منها إذ أنها قابلت هناك زوجها «بيل» لتنجب منه طفلين. ومازالا، بعد عشرين عاماً، يعيشان حياة زوجية سعيدة. وهي ما زالت تعمل في تلك المهنة، وقد ازدادت بهجتها بعد إذ اكتشفت موهبتها في كتابة الروايات العاطفية.

www.rewity-rom

الفصل الأول

تصاعد رنين الهاتف ملحاً قبل أن ترفع سارة السماعة وقد شعرت بالتوتر يتصاعد في داخلها. لقد سبق وقابلت «جيمس ماك أليستر» مرتين، ولكن أياً من تلك المناسبتين جعلتها تظن بأنه اقتنع بما أخبرته به. وإن كان هذا لا يعني أنها تلومه...

«ماك أليستر.»

كان الصوت خشناً عميقاً، وكانت صلابته ملحوظة حتى خلال قرقعة الإتصال الهاتفي. وكانت سارة ما تزال تحتفظ له بصورة حية في ذهنها منذ قابلته لآخر مرة منذ ثلاثة أشهر. كانت عيناه القاتمتان في برودة الثلج، ووجهه النحيل يتجلى فيه غضب مكظوم.... وشعرت برعشة تتملك جسدها. كان ينبغي لها أن تطلب من زميلتها السيدة لورنس أن تتصل به بدلاً منها. ولكن شعورها بالواجب دفعها إلى أن تقوم هي نفسها بهذه المهمة.

وقال بنفاد صبر وقد بانت الخشونة في صوته: «نعم..» وشعرت سارة بالدم يتصاعد إلى وجنتيها إذ هي تدرك أنها تجعل الأمور تزداد سوءاً بتلكوئها هذا.

وقالت: «السيد ماك أليستر، هنا سارة مارشال تتكلم. لا أدري إذا كنت تتذكرني. أنا معلمة ابنتك كاترين.» فقال: «إنني أذكر ذلك، يا آنسة مارشال.» ولم تخطىء نبرة الحدة في صوته، ذلك أن ما قالته له في ذلك الحين، لم يعجبه. كان

واضحاً أنه لم ينس ذلك أو يتسامح به. وعلى كل حال، لم يكن ثمة مجال لذكر هذا الآن، وتابع: «هل حدث شيء ما جعلك تتصلين بي؟»

فقالت بتوتر: «إنني.. إنني..» ما الذي جعلها تبدو بهذا التوتر، لقد اعتادت التعامل مع التلامذة وآبائهم دوماً... ولكن، ما أن يتكلم إليها السيد «ماك أليستر»، حتى تتعلثم كأية مراهقة وليست كامرأة ناضجة في الثلاثين من عمرها تقوم بعمل بالغ المسؤولية. وأسرعت تقول وقد تملكها الغيظ من نفسها، وهي تلحظ نفاد الصبر الذي بدا في لهجة الرجل الذي يكلمها: «آسفة لأن أقول إن كاترين قد اختفت يا سيد ماك أليستر.»

فقال: «اختفت؟ ماذا تعنين بذلك؟ من المفروض أن تكون الآن في رحلة للدراسة إلى فرنسا!» وتنفست سارة بعمق تهدىء من أعصابها وهي تقول: «كان من المفروض.. أعني هي الآن في هذه الرحلة. إنني أحدثك من باريس.»

فقال: «إذن أخبريني بالضبط عما حدث هناك، فأنا لم أسمح لابنتي بالقيام بهذه الرحلة، لكي تضيعيها.»

فقالت: «إنني لم أضيعها. ولم نقم بشيء خارج عن البرنامج المقرر للرحلة.»

كان مضطرباً جداً، ولم يكن لها الحق في أن تشعر بالإستياء من جفائه وتصرفه الإستبدادي وهو يطالبها بالجواب. إنها حساسيته المفرطة التي تعرفها عنه.

وقالت: «كنا في متحف اللوفر، أنا والسيدة لورنس والآنسة جاكوبس والفتيات، عندما افتقدنا كاترين... حسناً، لقد اختفت كاترين.»

فقال: «لم يختف أحد يا آنسة مارشال.. لا بد أنها أضاعت طريقها في مكان ما.. هل فتشتن عنها؟ ربما هي نفسها تبحث عنكن الآن!»

فقالت: «لقد أمضينا ساعتين في البحث عنها يا سيد ماك أليستر، وقد شاركنا في ذلك الحراس المناوبون ذلك الحين. صدقني اننا لم نجدها في أي مكان.»

ربما لم يكن لها أن تكلمه بتلك الحدة، ولكن هل من حقه أن يظنها حمقاء بهذا الشكل؟ ألا يكفيها أن كاترين قد اختفت وربما أسوأ من ذلك كما شاع فيما بعد، حتى يعاملها هو كامرأة غبية معتوهة؟ «حسناً.»

وعاد هو يقول: «إذن، فإنكم لم تجدوها في اللوفر. هل فتشتم عنها في مكان آخر؟ هل رجعتن إلى الفندق يا آنسة مارشال، أو إلى أي مكان قد تكون ذهبت إليه للتفتيش عنكن فيه؟ ليست ابنتي من ذلك النوع من الفتيات اللاتي يتصرفن من أنفسهن بهذا الشكل.»

فقالت: «أشك كثيراً في أنك تعرف تماماً أي نوع من الفتيات هي ابنتك، يا سيد ماك أليستر، وربما هذا هو أساس المشكلة.»

لم يكن لها أن تقول ذلك، وقد ساورها الندم حالما أفلتت هذه الكلمات من شفتيها. ولكن، فات الوقت لاسترجاعها. واشتدت قبضتها على السماعة وهي تنتظر ردة فعله، وما لبثت أن سمعت صوته الثائر يصيح بها: «من تظنين نفسك بحق جهنم، لتسمحي لنفسك بأن تصدري مثل هذا الحكم؟ إنني أدفع إلى المدرسة التي تعملين فيها أموالاً طائلة، لكي تحصل ابنتي على ثقافة جيدة. ولكنني لم أتوقع أن تحكم

عانس مثلك على علاقتي بابنتي بينما هي لا تفقه شيئاً عن الطريقة التي تفكر فيها فتاة حديثة السن.»

قالت بحدة: «كيف تجرؤ... يا سيد ماك أليستر، لا بد أن أشكو إلى...»

فقاطعها بخشونة: «إنني بصراحة، لا يهمني مطلقاً من تشكينني إليه، يا آنسة مارشال، إن ما يهمني، حالياً هو ابنتي والذي جرى لها. أظنك قمت بإبلاغ الشرطة؟»

قالت: «طبعاً. ولكنهم اقترحوا بالنسبة إلى الظروف، أن أنتظر يوماً أو نحو ذلك قبل أن يقوموا بتحرير محضر تحرٍ عن شخص مفقود.»

قال: «ظروف؟ أية ظروف؟ لقد اختفت كاترين وسأحملك كل المسؤولية في حال حدوث أي مكروه لها، نتيجة عدم اهليتك في تحمل المسؤولية. والآن أريدك أن تذهبي حالاً إلى دائرة الشرطة لتخبريهم أنني أريد أن يعثروا على ابنتي الآن.»

قالت: «أظن أن من الأفضل أن تدعني أنتهي من إعلامك بما حدث يا سيد ماك أليستر، ثم أخبرني بما كان يجب علينا أن نقوم به أكثر من ذلك. أظن أن اختفاء كاترين ليس تماماً بالشكل الذي بدا عليه. ذلك انني عندما رجعت إلى الفندق وجدت ورقة تركتها لي في غرفتي، تقول فيها انها هربت مع «فيليب» وأن لا أقلق عليها.»

فقال: «فيليب؟ من هو فيليب هذا، وما الذي تريدين قوله، يا آنسة مارشال؟»

أجابت: «فقط، أريد أن أقول إن كاترين لم تُفقد كما أنها لم تخطف. لقد هربت مع أحد الخدم في الفندق. فهل فهمت

الآن لماذا الشرطة تباطأت في القيام بعمل حازم للتفتيش عنها؟ لقد اخبروني أنه كثيراً ما يراجع الهاربون مثلها أفكارهم، ليعودوا من تلقاء أنفسهم.»

فقال: «هربت؟ تريدين أن تقولي إنك سمحت لابنتي بأن تهرب مع أحد الخدم في الوقت الذي أنت مسؤولة عنها فيه؟ يا إلهي، أيتها المرأة لا بد أنه سبق لك علم بما كان يحدث. ألم يكن في استطاعتك التصرف لتمنعي هذا؟»

ردت: «في الحقيقة ان الأمر أدهشني بقدر ما التي أدهشك أنت. لم تكن لديّ فكرة عن أن كاترين كانت... قد تكلمت مع ذلك الفتى أكثر من بضع كلمات تتعلق بعمله.»

وكان غضبه بالغاً شعرت به عبر الخط. وحاولت هي عبثاً أن تهدىء من الوضع، ولكن لم يكن ثمة شيء في إمكانه أن يخفف من غضب جيمس ماك أليستر كما يبدو.

وعاد يقول: «إن لك عينين في رأسك أيتها المرأة كان ينبغي أن تري بواسطتهما ما الذي يحدث وتمنعيه. ولا عذر لك أبداً برغم شهادتك الجامعية. إذ انه كان يجب عليك ملاحظة دلائل ذلك. لا بد أنه لديك خبرة بفتيات الخامسة عشرة اللاتي يقعن في الحب حتى ولو لم تجربي ذلك بنفسك.»

وما كان لها أن تغضب من كلامه الخشن ذاك، إذ كان ينبغي لها تجاهله وردّه إلى قلقه الشديد على ابنته. ومع ذلك فقد شعرت سارة بطعنة مؤلمة. هل هذه هي نظرته ونظرة الآخرين إليها؟ هل يرونها جميعاً فتاة عانساً مسنة لا تعرف المشاعر الطبيعية؟ ربما كان مصيباً في هذه النقطة. ذلك أنها امضت العشر سنوات الأخيرة في

عزلة عن الحياة العامة، ولا بد أن ذلك ترك بصماته عليها.

عاد هو يقول: «إن أمراً كهذا هو، بطبيعة الحال، شيء تسويقه فوق مستوى مقدرتك. وسآتي أنا في أول طائرة.»

كانت سخريته لاذعة، ولكنها ردت عليه بحدة: «وهل تريد مني أن أعاود الإتصال بالشرطة في هذا الوقت؟»

قال: «طبعاً. إذ أنه مع وجود الورقة التي تقولين عنها يا آنسة مارشال والتي أرجو أن تكون صحيحة، فإن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً، إذ ان ابنتي هي معتبرة مفقودة. إنني أريد من الشرطة أن تجدها وتعيدها إليّ.»

قالت: «إن كاترين ليست طفلة، فهي في السادسة عشرة تقريباً.»

فقال: «إنني أعلم كم عمرها، كنلك أعلم أنه لا توجد قوة على الأرض تجعلني أنتظر مكتوف اليدين، ببنما فتى حدث يستغلها لغرض في نفسه.»

وخبط السماعة قاطعاً الإتصال. ففعلت سارة مثله وهي ترتجف. إنها متفهمة تماماً لمشاعره ولكن هل كان يجب أن يكون بهذه الفظاظة؟

وأغمضت عينيها وهي تشعر بصدغيها يخفقان لشدة التوتر. يجب أن تستعيد توازنها قبل أن تأتي بقية المجموعة. إذ عليها أن تخبرهم بطبيعة الحال، إنما يجب أن تخفف من حقيقة الأمر قدر استطاعتها، ولو كان في استطاعتها حفظ هذا الأمر سراً بينها وبين والدها السيد ماك أليستر، لكان ذلك أفضل. ولكن لا أمل في هذا والمسكينة كاترين ستكون مثاراً للشائعات والأقاويل عندما

تعود إلى المدرسة... هذا إذا سمح لها والدها بالعودة إلى المدرسة عندما تنتهي هذه المشكلة وهذا أمر مشكوك فيه. لقد بدا وكأنه يعتبرها هي مسؤولة عما جرى لابنته. وربما كان ذلك صحيحاً في بعض النواحي. لقد حاولت أن تنذره منذ شهور بمدى شعور ابنته بالتعاسة، ولكنه رفض أن يستمع إليها. كان عليها أن تجتهد في إقناعه ولكن هل تراها كانت ستنجح في ذلك وقد عرفت الآن رأيه الحقيقي فيها؟ وهو انها عانس كبيرة السن؟

ونهضت سارة، ومشت نحو المرآة المعلقة فوق المدفأة لتتأكد من قسوة هذا الحكم. ولكن المرآة لم تعرض عليها ما يعزيها. فبشرتها الشاحبة وعيناها الزرقاوان الرماديتان وشعرها البني الخفيف المضموم إلى الخلف عند أسفل رقبتها، كل هذا أعطى صورة صادقة لمعلمة عانس. حتى أن ملابسها كانت قريبة من هذه الصفات أيضاً، فقد كان قميصها المقفول إلى العنق يبدو مفتقراً إلى الأناقة مع بدلتها الكحلية. لماذا لم تلاحظ من قبل كيف ابتدأت تكبر في السن؟ ما أشد إيلام هذه الحقيقة. لقد كانت تنظر إلى نفسها في المرآة يومياً، لتصطدم فجأة بحقيقة مرور سنين كثيرة، منذ كانت المرآة تعكس لها وجهاً ضحوكاً محاطاً بخصلات شعرها المجعدة. لقد بدت في ذلك الحين فتاة مختلفة، سعيدة وخالية من المسؤولية.. ثم وقع ذلك الأمر الذي غير حياتها بشكل مأساوي.

وابتعدت عن المرآة وهي تحاول أن تصرف ذهنها عن ذلك الألم الحاد الذي اعتاد أن يرافق تلك الذكرى.

لكن الماضي لا يعود. كما أن ما حدث قد حدث وانتهى

ولن يتغير. ومنذ عشر سنوات، استجمعت شتات نفسها والألم يكتنفها، لتتوجه في الطريق الذي انتهت إليه حياتها اليوم، وليس ثمة شيء يمكنه أن يغير ذلك الآن.

كانت الفتيات راقدات في اسرتهن وكان الفندق هادئاً. ورفعت سارة فنجان القهوة الذي أعدته لها «المدام» وأخذت منه رشفة وقد شعرت بالراحة والهدوء بعد طول قلق واضطراب. لقد سرى القلق بين الفتيات حين علمن بما حدث بالنسبة لكاترين، وامضين المساء بطوله يتناقشن عن المكان الذي يمكن أن تكون فيه، إلى أن كادت سارة تفقد أعصابها فصرخت بهن أن يتوقفن عن ذلك. وعندما حان وقت رقادهن أحست بالراحة لذلك، خاصة عندما عزمت المعلمتان الأخريان على الذهاب إلى الفراش هما أيضاً. ولم تكن هي متشوقة إلى اجتماعها المقبل بالسيد جيمس ماك أليستر، بل كانت تفضل لو مضت الأمور دون حضور أحد، خاصة إذا هو اختار أن يكرر نعوته السابقة لها.

وضعت فنجان القهوة من يدها لتقفز واقفة بعد ان سمعت صوت باب سيارة في الخارج وقد تسارعت دقات قلبها. ولكن القادمين كانا نزيلين في الفندق، فعادت تجلس على كرسيها وهي تومىء برأسها ترد تحيتهما بأدب وهما يمران بقاعة الجلوس. أين السيد ماك أليستر إذن؟ لقد اخبرها أنه سيستقل أول طائرة وكان ذلك منذ ساعات. إن تأخره هذا لن يحسن كثيراً من طباعه السيئة.

وبقيت سارة في قاعة الجلوس ساعة أخرى، ولكن عندما دقت ساعة الحائط الثانية عشرة، أدركت أن هذا

يكفي، فقد كانت متعبة واهنة القوى بعد ذلك اليوم الحافل، عدا عن الجهد الذي بذلته في رعاية «دزينة» من فتيات في الخامسة عشرة طوال الأسبوع الماضي. فهي بحاجة إلى قليل من النوم، سواء كان السيد ماك أليستر راضياً أم حانقاً وستترك ملحوظة له عند الموظف الليلي بأنها ستراه في الصباح.

وفي غرفتها خلعت سترتها وعلقتها على المشجب، ثم تنورتها وقميصها. وكانت تتمنى حماماً ساخناً في هذا الوقت لو أن الفندق يوفر مثل هذه الرفاهية في غرف النزلاء، ولو ان الرحلة لا تمر عبر القاعة إلى الحمام العام في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل. وكان عليها أن تستعيض عن ذلك بغسل سريع في حوض غسل الأيدي في غرفتها.

ملأت الحوض وابتدأت تغسل يديها عندما قرع باب غرفتها. وتمتمت بضيق وهي تترك الصابونة في الحوض ونظرت حولها تفتش عن ردائها المنزلي، لتشهق ذاهلة وهي ترى الباب يفتح ويدخل منه السيد جيمس ماك أليستر.

سألها وهو يقف عند الباب: «حسناً، أليس ثمة خبر عن كاترين حتى الآن؟»

كان يحدق في وجهها الذاهل بعينين في برودة الثلج. وشعرت سارة برعشة خوف تشمل جسدها، وصرخت فيه: «أخرج. ما الذي تظن أنك تفعله إذ تقف هنا تحقق معي بهذا الشكل؟ أخرج حالاً.»

مدت يدها تلتمس المنشفة التي ما لبثت أن سقطت من بين أصابعها المرتجفة.

ولن يتغير. ومنذ عشر سنوات، استجمعت شتات نفسها والألم يكتنفها، لتتوجه في الطريق الذي انتهت إليه حياتها اليوم، وليس ثمة شيء يمكنه أن يغير ذلك الآن.

كانت الفتيات راقدات في اسرتهن وكان الفندق هادئاً. ورفعت سارة فنجان القهوة الذي أعدته لها «المدام» وأخذت منه رشفة وقد شعرت بالراحة والهدوء بعد طول قلق واضطراب. لقد سرى القلق بين الفتيات حين علمن بما حدث بالنسبة لكاترين، وامضين المساء بطوله يتناقشن عن المكان الذي يمكن أن تكون فيه، إلى أن كادت سارة تفقد أعصابها فصرخت بهن أن يتوقفن عن ذلك. وعندما حان وقت رقادهن أحست بالراحة لذلك، خاصة عندما عزمت المعلمتان الأخريان على الذهاب إلى الفراش هما أيضاً. ولم تكن هي متشوقة إلى اجتماعها المقبل بالسيد جيمس ماك أليستر، بل كانت تفضل لو مضت الأمور دون حضور أحد، خاصة إذا هو اختار أن يكرر نعوته السابقة لها.

وضعت فنجان القهوة من يدها لتقفز واقفة بعد ان سمعت صوت باب سيارة في الخارج وقد تسارعت دقات قلبها. ولكن القادمين كانا نزيلين في الفندق، فعادت تجلس على كرسيها وهي تومىء برأسها ترد تحيتهما بأدب وهما يمران بقاعة الجلوس. أين السيد ماك أليستر إذن؟ لقد اخبرها أنه سيستقل أول طائرة وكان ذلك منذ ساعات. إن تأخره هذا لن يحسن كثيراً من طباعه السيئة.

وبقيت سارة في قاعة الجلوس ساعة أخرى، ولكن عندما دقت ساعة الحائط الثانية عشرة، أدركت أن هذا

يكفي، فقد كانت متعبة واهنة القوى بعد ذلك اليوم الحافل، عدا عن الجهد الذي بذلته في رعاية «دزينة» من فتيات في الخامسة عشرة طوال الأسبوع الماضي. فهي بحاجة إلى قليل من النوم، سواء كان السيد ماك أليستر راضياً أم حانقاً وستترك ملحوظة له عند الموظف الليلي بأنها ستراه في الصباح.

وفي غرفتها خلعت سترتها وعلقتها على المشجب، ثم تنورتها وقميصها. وكانت تتمنى حماماً ساخناً في هذا الوقت لو أن الفندق يوفر مثل هذه الرفاهية في غرف النزلاء، ولو ان الرحلة لا تمر عبر القاعة إلى الحمام العام في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل. وكان عليها أن تستعيض عن ذلك بغسل سريع في حوض غسل الأيدي في غرفتها.

ملأت الحوض وابتدأت تغسل يديها عندما قرع باب غرفتها. وتمتمت بضيق وهي تترك الصابونة في الحوض ونظرت حولها تفتش عن ردائها المنزلي، لتشهق ذاهلة وهي ترى الباب يفتح ويدخل منه السيد جيمس ماك أليستر.

سألها وهو يقف عند الباب: «حسناً، أليس ثمة خبر عن كاترين حتى الآن؟»

كان يحدق في وجهها الذاهل بعينين في برودة الثلج. وشعرت سارة برعشة خوف تشمل جسدها، وصرخت فيه: «أخرج. ما الذي تظن أنك تفعله إذ تقف هنا تحقق معي بهذا الشكل؟ أخرج حالاً.»

مدت يدها تلتمس المنشفة التي ما لبثت أن سقطت من بين أصابعها المرتجفة.

فدخل وأغلق الباب خلفه وهو يقول: «إنني لن أذهب إلى أي مكان يا آنسة مارشال.»

وابتسم وهو يرى عينيها المتسعتين واستطرد: إنني آسف لخروجي عن الحشمة في نظرك. ولكن هذا الوقت ليس وقت الإهتمام باللياقات، أعني الوقت الذي تكون فيه ابنتي مفقودة.»

قالت: «إن اختفاء كاترين لا يعطيك الحق في أن تدخل غرفتي. أخرج قبل أن أنادي موظف الفندق ليلقي بك خارجاً. ليس ثمة عذر لهذا النوع من السلوك. إن هذا كثير يا سيد ماك أليستر.»

احمر وجهه وقال ثائراً: «هذا كثير؟ كلا. إن الكثير حقاً هو سماحك لابنتي بأن تهرب مع فتى خليع.»

وتوترت عضلات وجهه وهو يقول ذلك، وأطبق شفتيه بصرامة. كان بادى القوة الجسمانية برغم نحافته الظاهرة. وكان شعره قريباً من السواد وقد لوحت الشمس بشرته. بدا خشناً وعدوانياً وهو يقف محدقاً إليها. وشعرت هي بالإضطراب والقلق وفي نفس الوقت كرهت نفسها لمشاعر الخوف هذه.

قالت: «لم يسمح أحد لابنتك بأن تهرب. إنها هي التي أرادت ذلك، أما قولك ان فيليب هو فتى خليع.» وتنفست بغضب وتابعت «بصراحة يا سيد ماك أليستر لا أظن ان عندك فكرة عما تتكلم عنه. على كل حال، لن أطيل الحديث في هذا الموضوع حالياً. إنني متفهمة لمشاعرك ولكن حتى هذا لا يعطيك الحق في هذا السلوك الذي لا يغتفر. فهل تسمح بأن تخرج من الغرفة حالاً؟ سنتابع

حديثنا هذا في قاعة الجلوس بعد أن أرتدي ثيابي!»

قال: «بصراحة يا آنسة مارشال لا يهمني حتى ولو كنت عارية تماماً. كاترين وحدها هي التي تهمني. وإذا كنت تظنين أنني سأؤخر حديثنا في هذا الموضوع، فأنت مخطئة. لقد أضعت وقتاً كافياً حتى الآن، وشكراً للمواصلات الجوية الفرنسية التي اختارت هذا اليوم لكي تعتمد نظام التنقلات الجديد.» وألقى نظرة على جسدها الممشوق الذي لا يستره سوى حمالة صدر وتنورة، ليستدير ويأخذ من على كرسي قريب رداءها المنزلي ثم يناولها إياه قائلاً: «إرتدي هذا إذا كان ذلك يريح شعورك. ثم نجلس معاً ونتحدث في هذا الأمر الهام بدلاً من شتائمك المتعلقة بالحشمة.»

أخذت سارة الرداء منه لترتديه وقد تورد وجهها لدى لهجة الإزدراء في صوته العميق. وحملت نفسها على أن تواجه نظراته الباردة بينما كانت تربط الحزام حول خصرها. وهي تتمنى لو أبطأت خفقات قلبها. وما لبثت أن شعرت بالارتياح بعد أن سترت جسدها. ولكنها لم تستطع التخلص من موجات الخوف والغضب التي تنتابها، بعد ان تذكرت آخر مرة وقف فيها رجل في غرفة نومها ليواجهها بعينين غاضبتين.

وقال: «هل معك الرسالة التي تركتها كاترين لك؟»

أعادها صوته إلى واقعها الحاضر. ودون أن تتكلم، استدارت إلى أحد ادراج خزانتها لتأخذ الرسالة ثم تناوله إياها. وقرأها هو بسرعة ثم طواها قبل أن ينظر إليها من تحت حاجبيه المقطبين، وهو يقول: «وماذا قالت

الشرطة في شأنها؟ طبعاً باعتبار أنك أريتهم إياها.»

تجاهلت ملاحظته اللاذعة تلك وهي تقفل الزر الأعلى لردائها وقد أشعرتها نظراته المتفحصة، بالضيق. وقالت: «هذا طبيعي. على كل حال، يبدو أن نظرتهم إلى الأمر أصبحت إيجابية، بحيث انه لم يعد ينبغي علينا أن نقلق كثيراً، حيث أن كاترين قد ذهبت مع فيليب بكامل مشيئتها.»

فقال وقد تجهم وجهه: «بكامل مشيئتها؟ إنها ما تزال طفلة. فهي أصغر من أن تدرك الذي تفعله.» واشتعلت عيناه غضباً وهو يقول ذلك. وتراجعت سارة بالغريزة. ما زالت تلك الذكريات تراودها، تلك الذكريات القاتمة المريرة التي تكمن في أعماقها. لقد كانت من قبل، تعيش معها ليلاً نهاراً. تعيش وتتنفس الكوابيس. ولكن مرور الزمن خفف من مخاوفها، فاستطاعت أن تختزنها في أعماق عقلها الباطن. والآن فتح هياج جيمس ماك أليستر الباب لتتسرب هذه الذكريات عائدة إليها ببطء غادر. وارتجفت بشكل واضح في محاولة للتخلص منها. وقالت: «إن هذا لا يوصلنا إلى شيء يا سيد ماك أليستر. لقد اخبرتك بما قالته الشرطة. ولكن هذا لا يعني أنني أوافقهم على ذلك. إن كاترين هي طبعاً، أصغر من أن تقرر أمراً كهذا. ولكن، عليك أن تتفهم وجهة نظرهم. إن فيليب لم يختطف ابنتك، بل ذهبت هي معه بإرادتها. وهذا واضح من هذه الرسالة.»

فقال: «أحقاً؟ إنك تقرأين الأفكار، أليس كذلك؟ ويمكنك أن تعلمي بماذا كانت ابنتي تفكر وهي تكتب هذه الرسالة..» وأعاد إليها الرسالة وهو يقترب منها، إلى حد شعرت سارة

معه بحرارة جسده القوي، وشمت رائحة الصابون الملتصقة بجسده. وتراجعت بحركة غريزية رآها هو، فقال:

«ما الذي جرى لك؟ إنك تقفزين كالهرة.» ومد يده ليمسك بها. وكانت اصابعه وهو يمسك بذراعها العارية صلبة باردة. ولكن سارة ابتعدت عنه بسرعة وهي تقول بلهجة آمرة: «لا تلمسني.» وتوتر جسدها إزاء لمسته الخفيفة لذراعها. فحدق فيها طويلاً بصمت ثم ترك يده تنسبل إلى جانبه، وقال: «لا تقلقي. ليس عندي النية في ان ألمسك مرة أخرى. سأركز اهتمامي على ابنتي فهي الوحيدة التي تحتاج ذلك.»

واستدار مبتعداً نحو النافذة وقد حنى ظهره، وأزاح الستارة عن النافذة ومضى ينظر منها إلى الخارج، وهو يقول: «لديك فكرة عما أنا في سبيله يا آنسة مارشال؟ وهل تهتمين لذلك؟ هل تعتبرين اختفاء كاترين شيئاً لا يخرج عن كونه حدثاً أربك حياتك الهادئة؟»

فقالت: «هذا ليس صحيحاً. ذلك انني قلقة فعلاً على كاترين، فهي واحدة من أفضل تلميذاتي.»

لقد استطاعت الآن ان تتنفس بارتياح بعد أن ابتعد عنها. واستطاعت أن تتمالك روعها وتتخلص من الفزع الذي كان على وشك أن يتملكها. إنها امرأة ناضجة الآن ولم تعد تلك الطفلة أو الصبية لتخاف أو ترتبك. ومهما كان شعور جيمس ماك أليستر نحوها الآن، فهو لا يمكن أن يكون رغبة بأي حال!

وقال هو: «واحدة من أفضل تلميذاتك؟.. ما أروع هذا! هل هذا كل ما تعنيه ابنتي بالنسبة إليك يا آنسة مارشال؟

إنك تدهشينني. لقد خلفت عندي طريقتك في عرض آرائك مؤخراً، فكرة أن كاترين كانت تعني لك شيئاً أكثر من مجرد تلميذة. وأنك ربما كنت تعملين لخيرها وسعادتها.»

كان وجهه حين استدار ونظر إليها، ينم عن الإزدراء والبرود. وتصلبت هي في جلستها لتقول: «من الطبيعي أن أهتم لذلك فهي فتاة حلوة جداً. وقد ساورني مؤخراً إحساس عميق بأنها كانت تشعر بالتعاسة لسبب ما، وهذا هو السبب في أنني حاولت أن أتحدث إليك بشأنها، ولسوء الحظ تجاهلت أنت هذا الإنذار ليحدث الآن هذا الأمر.»

فارتسمت على شفتيه ابتسامة متوترة ساخرة لم تبلغ عينيه وقال: «أوه كلا.. هذا مجرد عذر تتسترين وراءه يا آنسة مارشال.»

توترت مشاعر سارة وهي تقول: «عذر، أتستر وراءه؟»

لو أنه، فقط، يترك كل هذا إلى الصباح لتكون قد ارتاحت قليلاً وأصبحت مهيأة للمناقشة. لقد كانت أكثر إرهاقاً من أن تستطيع فهم ما يعني.

فأجاب: «ذلك إذ تحاولين إلقاء اللوم علي. لقد كنت أنت المسؤولة عن كاترين أثناء وجودها هنا. لقد كانت في عنايتك عندما اختفت. إنك انت التي فشلت في رؤية ما يدور تحت أنفك، وعليك أنت يقع اللوم يا آنسة مارشال وليس عليّ لقد وضعتها أمانة عندك فلم تحفظي الأمانة.»

وقفت سارة وهي تهز رأسها لترجع خصلات من شعرها افلتت من الشريط الذي يربطها، وهي تقول: «هذا الكلام غير صحيح وغير عادل.»

لقد غاظها أن تراه يحاول أن يجعل منها كبش الفداء

يواري خلفه تقصيره، عندما حاولت جهدها تحذيره من أن ثمة خطأ ما، وذلك منذ أشهر. وقالت: «ان السبب الوحيد الذي دفع كاترين إلى هذا التصرف الغريب عن طبيعتها، هو قلة اهتمامك يا سيد ماك أليستر. كم من المرات كلفت نفسك زيارة ابنتك السنة الماضية؟ كم من المرات كلفت نفسك كتابة رسالة إليها أثناء احدى رحلاتك العديدة إلى الخارج؟ فإذا كان ثمة أحد يقع عليه اللوم لاختفاء كاترين، فهو أنت. لتصرفاتك الخالية من الشعور نحوها.»

فقال: «إنني رجل أعمال يا آنسة مارشال، وطبيعة عملي تستدعي أن أسافر دوماً إلى الخارج. وكاترين تعرف هذا. فالسبب الوحيد لإرسالها إلى مدرستك الداخلية هذه، هو، عدم استطاعتي توفير حياة منزلية مناسبة لها.»

كان الغضب يبدو في صوته العميق، ولكن سارة لم يتملكها الخوف هذه المرة، وإنما أغضبها أن تراه يتملص من المسؤولية تجاه هذا الأمر. وقالت: «المدرسة الداخلية ليست بديلاً من البيت السعيد. إنني أتفهم صعوبة وضعك، ولكن كاترين بحاجة إلى الشعور بأنك موجود دوماً عندما تكون بحاجة إليك وعليك أن تهتم بهذا! قد يكون في إمكانك دفع تكاليف تعليمها ولكن ليس في استطاعتك أن تدفع ثمن ما كان يتوجب عليك أن تعطيها. وهو الحب.»

فقال: «إنك لا تعلمين شيئاً عن طبيعة علاقتي بابنتي. لقد كانت دوماً في منتهى السعادة إلى هذه السنة بعد ان سقطت تحت تأثير نفوذك. لا أدري ما هي الأفكار التي كنت تغرسينها في رأسها. لم يكن ثمة مشكلات بيني وبين كاترين حتى السنة الماضية. وفجأة، امتلأت رسائلها

بأمثال هذه الأمور: «تقول الآنسة مارشال.» أو «عندما كنت أتحدث إلى الآنسة مارشال...» أي نوع من الطرق كنت تمارسينها على ابنتي؟ لماذا ابتدأت، فجأة، تستعملين نفوذك على طريقة تفكيرها؟» وسكت يتمعن في وجهها عابساً، وسادت دقيقة صمت. وعندما عاد إلى الكلام كان صوته رقيقاً ناعماً كدمدمة النمر قبل وثوبه: «هل هي حيلة منك للوصول إليّ عن طريقها؟»

فقالت وقد توقفت أنفاسها ونظرت إليه بعجب: «ليس.. ليس عندي فكرة عما تعني.» وابتسم هو ببطء عابراً الغرفة ليقف في مواجهتها قائلاً: «أحقاً؟ إنني أعجب للسبب الذي جعلني لا أكاد أصدق هذا.» وأطلق ضحكة خفيفة وهو يرقب ارتعاش جفنيها قبل أن تغمضهما، لكي تحمي عينيها من تفرسه الغريب المقلق الذي بدا وكأنه يغوص في أعماق روحها. وتابع يقول: «لقد اتهمتك هذا الصباح بأنك عانس من دون مشاعر، ولكن يظهر أن فكرتي هذه كانت خاطئة.»

فقالت: «ليس عندي فكرة عما تتحدث يا سيد ماك أليستر. وبصراحة ليس عندي رغبة في معرفة ذلك، فهذا يثير السخرية.» وحاولت أن تبتعد عنه، ولكنه أمسك بذراعها بقوة منعتها من الابتعاد. وقال: «أحقاً؟ ربما الأمر ليس كذلك. إن الحياة مليئة بالمفاجآت الصغيرة يا آنسة مارشال، وأنت تعلمين هذا. لقد قلت إنك ربما كنت كذلك... هل أقول إنك انجذبت إليّ بشكل مفاجىء؟»

قالت وهي تلوي ذراعها وتحاول الإفلات: «انجذبت إليك؟ كلا...» فجأة وقد يئست من الافلات من قبضته،

جذبها إلى قربه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، وهو يقول: «كلا؟ مع أن ذلك يمكن أن يفسر أموراً كثيرة، أليس كذلك؟ الطريقة التي تصرفت فيها في آخر اجتماع لنا، إصرارك على مقابلتي لك شخصياً بشأن كاترين بينما كان الأمر، من وجهة نظري، لا يستحق ذلك. وعندما أفكر الآن في ذلك، أدرك أنه كان دوماً هناك نوع من التوتر بيننا، عندما نتحدث معاً يا آنسة مارشال. لقد كنت أرجع ذلك، في الماضي، إلى نفورك العميق من الرجال جميعاً. ولكن، ربما كان حكمي هذا باطلاً. ذلك أن الوعي الحسي هو شعور في منتهى القوة. وفقدانه، كما يبدو عليك، يدفع الانسان إلى القيام بتصرفات بعيدة عن الواقع وأحياناً غريبة جداً.»

فقالت: «كلا.. كيف تجرؤ؟ ذلك أنه إذا كان قد حصل بيننا شيء من التوتر أثناء اجتماعاتنا في الماضي، ربما كان ذلك مستمداً من عدم رضائي عن الطريقة التي تعامل بها ابنتك.»

كانت تجهد يائسة في سبيل إقناعه، ولكن برغم أن نظرة حادة تألقت في عينيه إزاء كلماتها الجارحة، إلا أن ابتسامته الساخرة لم تتغير وهو يقول: «هل الأمر كذلك حقاً؟ لا بد انك خلال السنوات التي أمضيتها في التعليم، قد عرفت آباءً شعرت بأنهم لا يولون أبناءهم الكفاية من الرعاية. فهل أجريت مقابلات معهم بهذا الشأن، من دون أي شعور بالتوتر بينك وبينهم يا آنسة مارشال؟ وهل ينتج عن ذلك نفس شعور الكراهية نحوهم أيضاً؟» وهز رأسه وهو ينظر في عينيها المتسعتين وهو يتابع «لا أظن ذلك.»

فقالت: «لا يهمني ما تظنه يا سيد ماك أليستر. كيف تجرؤ على دخول غرفتي لكي تتهمني بمثل هذه...» سكتت وقد تضرج وجهها وهي تحاول عبثاً أن تصوغ تلميحاته في كلمات. ولكن لم يبد عليه أنه يعاني من مثل ترددها وهو يقول رافعاً حاجبه متسائلاً بأدب: «هل تمثلين دوراً لاجتذابي؟» ولكن أدبه الظاهر هذا لم يخدعها. ذلك أنه لم يكن في سلوك جيمس ماك أليستر أي مجال للتهذيب أو التمدن. لقد كان رجلاً خطراً، وقد عرفت هذا عنه منذ أول اجتماع بينهما. هل كان هذا هو السبب في التوتر الذي تشعر به كلما اجتمعت به؟ ربما. ويبدو انه شعر بهذا الأمر عنها فأخذ يفسره بمعنى لم تقصده هي قط.

وتنفست بعمق وهي ترغم نفسها على النظر في عينيه القاتمتين الماكرتين، قائلة برصانة: «إنني لا أمثل عليك دوراً. إنني احتقر كل ما تعتقد به. وإذا شئت الحقيقة، فإنني أيضاً، أحتقر الطريقة التي تسير بها في حياتك دون اعتبار لما تؤثر به تلك الطريقة على ابنتك.»

فقال: «هل هذا صحيح؟ إن هذا يصعب عليّ تصديقه وأنا أزن الأمور. إنني لست رجلاً مغروراً، ولكنني رجل واقعي يا آنسة مارشال. ولقد اعتادت النساء مطاردتي لأسباب كثيرة، أهمها أنني أرمل جميل المظهر ولا بأس بثروتي. ولكنني يجب أن أدلي بحقيقة قد تجعلك تقفزين دهشة، وهي أنني لم أعتبرك قط بشخصيتين. ولكن، بطبيعة الحال قد تكون المظاهر خداعة ألا تظنين ذلك؟ فقد رأيت فيك مظاهر العزباء التي تبالغ في التمسك بالحشمة أكثر مما يستلزم الأمر.»

واشتد ضغط أصابعه على ذراعها وهو يجذبها نحوه، متابعاً قوله: «أظنني يجب ان أشعر بالسرور لشعورك هذا نحوي، ولكن افكاري تنحصر الآن في ما يمكن ان يكون قد جرى لكاترين. دعينا إذن، ننتهي من هذا الأمر الآن. أليس كذلك؟»

فقالت: «ماذا تعني بذلك؟ إسمع إن هذا... أوه.»

وماتت الكلمات على شفتيها وهو ينحني ليلثمها. وأطل الكابوس المعتاد برأسه في ذهنها، ليجعلها تناضل بضراوة. وأخذت تضرب كتفيه بقبضتيها قبل أن تغرز أظافرها بوحشية في جانب وجهه. شتمها بخشونة ثم دفعها عنه وقد اسود وجهه من الغضب. ولكنها لم تهتم بشيء ولا بما قد يظنه فيها.

واخترق الصمت الذي ساد جو الغرفة، صوتها المتحشرج صارخا: «أخرج من هنا.»

فقال وهو يمسح الدم عن وجنته: «إنني خارج. ولكن هذا الأمر لم ينته بيننا بعد، يا سارة مارشال.»

نظر إليها بحدة وهي تقف أمامه ترتجف وتابع: «لا يوجد ثمة شخص طبيعي يتصرف بهذا الشكل. إنني لن أنسى هذا، صدقيني. ثمة مشكلات في نفسك أيتها السيدة، وسأسعى، بعد أن تعود إليّ ابنتي، إلى أن لا أدع تأثيرك يكتسح نفوس تلميذاتك الناشئات. إنني سأسعى جهدي إلى أن تتوقفي عن التعليم نهائياً بعد الآن.»

واستدار خارجاً من الغرفة صافقاً الباب خلفه، بينما كانت هي ترقبه خارجاً وجسدها ما زال يرتجف تأثراً بما حدث وما قاله بعد ذلك. ما الذي ستفعله إذا هو نفذ تهديده

هذا ولم تعد تجد ملجأها واستقرارها في التعليم؟ وخافت من التفكير في هذا الأمر. لقد كان في التعليم خلاص نفسها منذ سنين، وهو الشيء الوحيد الذي أعاد التكامل إلى نفسيتها المشتتة. ومن دونه ستغرق في مهاوي اليأس. لقد قال إنها تعاني من مشكلات نفسية وكان على حق في ذلك، ولكن أكبر المشكلات التي تعاني منها حالياً هي جيمس ماك أليستر.

الفصل الثاني

إنعكست أشعة الشمس على بقع المياه المنتشرة على بلاط الشرفة، حيث جلست سارة وقد أراحت رأسها إلى مسند الكرسي، وأغمضت عينيها شاعرة بالتعب في كل خلية في جسدها. فلم يكن غريباً أنها لم تكد تعرف النوم. كانت تشعر بثقل في رأسها، وحرارة في عينيها من جراء أشعة شمس أيار التي تكاد تلهبهما.

لقد أمضت طيلة الليلة في فراشها مستيقظة متمنية مجيء الصباح. ولكن مجيئه لم يخلصها من الكابوس الذي يعيش ويتنفس في أعماقها. ولقد اضيفت الآن تصورات أخرى إلى ذلك وإلى كل ما يكمن في نفسها منذ زمن طويل، مضخمة صورتها وصورة جيمس ماك أليستر، والثورة في وجهه عندما قابلها في غرفتها، والسخرية الباردة في عينيه عندما احتضنها محاولاً لثمها.. ثم، وهو الأسوأ، غضبه البالغ وهو يمسح الدم عن وجهه.

«سارة؟ هل أنت بخير؟»

وقفزت سارة من مقعدها وهي تلتفت نحو الباب لترى الآنسة «ستيفاني جاكوبس»، إحدى المعلمتين، واقفة ترقبها باهتمام.

قالت سارة: «نعم أنا بخير، شكراً. إنني فقط، متعبة قليلاً وهذا كل شيء. لم أستطع النوم جيداً بسبب قلقي على كاترين.»

WWW.REWITY.COM

ساورها الشعور بالذنب وهي تكذب بمثل هذه السهولة. ولكن، هل في إمكانها أن تكشف عن السبب الذي أبقاها مستيقظة؟ كيف يمكنها أن تكشف عن أن جيمس ماك اليستر قد اتهمها بتمثيل دور عليه لاجتذابه، ثم حاول أن يلثمها، وأنها هي، بدلاً من التصرف معه بالحكمة اللازمة، قد تصرفت كامرأة مجنونة؟ لم يكن أحد ليعرف ماضيها، كما وأنها لا تود ان تكشف عن ذلك الماضي. لم تكن ثمة طريقة تطلع بها ستيفاني على ما حدث، دون أن تخبرها بكل الظروف والأسباب التي أدت إليه.

قالت ستيفاني: «إنني أدرك ما تعنين. إنني قلقة لأجلها كذلك. أتظنينها ستراجع عقلها وتدرك مدى حماقتها؟»

وكان وجه ستيفاني الجميل يعلوه القلق وهي تستطرد: «لا يمكنني أن أفهم لماذا قامت بعمل كهذا، يا سارة. لقد كانت دوماً فتاة هادئة.»

ابتسمت سارة بحزن وهي تقول: «أخشى أن يكون هدوءها ذاك هو المشكلة. فكاترين هادئة أكثر من اللازم مما يجعلها تحتفظ بكل مشاعرها لنفسها بدلاً من أن تبوح بما يقلقها. لقد شعرت منذ عدة أشهر أن ثمة شيئاً غير طبيعي بالنسبة إليها، ولكنني لم أتصور مطلقاً أن من الممكن أن تقوم بعمل كهذا. لقد كنت آمل أن تأتي إليّ لتخبرني بما هناك لنحاول معاً، أن نجد له حلاً. فأنا أشعر أنني مسؤولة عما حدث الآن.»

قالت ستيفاني: «لا تلومي نفسك، ذلك أن المسؤول الوحيد هو والدها. إنه مثلها الأعلى. في الحقيقة يا سارة، إن الطريقة التي يدفن فيها بعض الآباء أولادهم في

المدارس، ثم ينسونهم تقريباً، تحملني على الشعور بالغثيان.»

احمر وجه ستيفاني سخطاً، مما جعل سارة تشعر معها. لقد وافقتها على كل كلمة قالتها... إن والد كاترين هو حقاً، المسؤول الأول الجدير باللوم على ما قامت به ابنته... برغم عدم إقراره بذلك بطبيعة الحال. وكان عليه أن يجد كبش الفداء ليريح ضميره، ويبدو أنه عليها هي أن تكون هذا الكبش!

قالت: «أشك في قبوله لحكمك هذا يا ستيفاني. لقد حاولت أن أخبره، منذ عدة أشهر، بقلقي عليها، ولكنه رفض الاستماع إليّ. لقد كانت حياته الخاصة أكثر أهمية بالنسبة إليه مما كان يحدث لابنته.»

كانت سارة تنتقد الأب وتدينه كلياً بالتسبب في ما حدث. ومن وجهة نظرها، لقد تملّص جيمس ماك أليستر من مسؤولياته، وعلى كاترين أن تدفع ثمن عدم اهتمامه ذاك.

وقطع عليهما حديثهما صوت غاضب يقول: «إنني أعترض على ملاحظاتك هذه يا آنسة مارشال. إن ابنتي مهمة جداً بالنسبة إليّ وأنا لا أقبل أبداً من أي انسان أن يقول خلاف ذلك.»

أعاد الصوت إلى ذهن سارة، ذكرى ما حدث الليلة الفائتة. وشعرت بالدم يتجمد في عروقها وهي تستدير لترى السيد جيمس ماك أليستر واقفاً في نهاية الشرفة. وراودتها الذكرى لحظة، قبل أن تطردها من ذهنها. لقد مضت الليلة الفائتة وربما لم يكن في امكانها أن تغير ما حدث. ولكن عليها الآن أن تحسن التصرف لكي يمر هذا

اليوم بسلام. وعليها أن تجد القوة اللازمة لكي تستطيع التعامل مع والد كاترين دون أن يدب بينهما الخصام، وذلك إلى أن تعود ابنته.

فكرت في أن عليها أن تجد طريقة مضمونة لتزيد من غيظه.

قالت: «هل هي حقاً بهذه الأهمية عندك، يا سيد ماك أليستر؟» وابتسمت ببرود مستطردة: «على كل حال، فإنني أتساءل، ما دامت هي كما تقول مهمة بالنسبة إليك، فأين موقعها بالضبط من قائمة اهتماماتك الأولية؟»

تقدم هو نحوها وقد بدا مظهره القاتم خطراً بسرواله الجينز وقميصه الأسودين اللذين أظهرا نحافته، وهو يقف مشرفاً عليها ويقول: «أرجو المعذرة؟ هل تسمحين بأن توضحي كلامك هذا؟»

قالت: «لا أظن أن كلامي بحاجة إلى إيضاح. ولكن، إذا كنت تصر على ذلك.» وتلاقت نظراتهما لحظة، ما لبثت بعدها أن خفضت رأسها لتتلافى برودة تحديقه فيها، وأخذت تعبث بحواشي قميصها الأبيض وثنيات تنورتها الرمادية، وهي تقول: «كل انسان عنده قائمة باهتماماته الأولية في حياته. المنزل، الأسرة، الوظيفة. وأنت رجل أعمال ناجح جداً واهتماماتك عالمية. ولكنني أتساءل فقط أين موقع كاترين بين اهتماماتك هذه؟ هل هو قبل عملك أم بعده؟»

ربما لو لم يكن الصداع يتملكها، والتوتر يغمر جسدها، ولو لم تكن قد أمضت أسوأ ليلة في حياتها مستيقظة بسببه، ربما كانت قد اختارت كلامها بطريقة مختلفة وأكثر حكمة

مما فعلت. ربما، ولكنها تشك في ذلك. فهذا الرجل قد سخر منها وأخافها، ليتدفق الآن كل ما كان يجول في نفسها من ألم وحنق.

قال ببرود يخفي ثورة كامنة: «إن مصلحة كاترين هي دوماً في المقدمة عندي. إنني لم أفكر قط في أن تكون أقل من ذلك بالنسبة إليّ.»

ضاقت عيناه وهو يقول ذلك وتصلب فكه. وتمتمت ستيفاني معتذرة ثم ولت هاربة. ولكن سارة لم تكد تلحظ ذهابها، إذ أن كل الألم والمعاناة اللذين كانا يعتملان في نفسها قد تفجرا بثورة مماثلة لثورته وهي تقول: «عفواً لشكوكي هذه، ولكن، ماذا بالنسبة إلى ذكرى ميلادها؟ هل تذكرته؟ هل أرسلت لها هدية؟ أو حتى بطاقة؟»

هزت رأسها وقد تصاعد الدم إلى وجهها الشاحب، بينما عيناها الرماديتان تكمن فيهما ثورة عميقة وهي تتابع حديثها: «لقد بقيت كاترين تتردد على غرفة الإدارة في المدرسة طيلة النهار في انتظار وصول رسالة، أو بطاقة، أي شيء منك. ولكن، دون فائدة لأنك كنت مشغولاً عنها جداً في أعمالك الخاصة، فلم تتذكر ماذا يعني ذكرى ميلاد فتاة في الخامسة عشرة من عمرها بالنسبة إليها.»

فقال: «لقد كنت في بوليفيا على بعد أميالٍ من أقرب مدينة. ولم يكن ثمة طريقة أستطيع بها شراء بطاقة وقد شرحت لها ذلك عند عودتي.»

فقالت: «وهذا كان مفروضاً فيه ان يصلح من خيبة أملها، أليس كذلك؟ أعني أن تشرح لها عدم إمكانك الوصول إلى الدكان؟ إنك لم ترها في ذلك اليوم. يا سيد ماك أليستر،

ولكن أنا رأيتها. لقد شاهدت مقدار ألمها. رأيت كيف كانت تحاول التخفيف من واقع أنك نسيت ذكرى ميلادها وذلك أمام صديقاتها. وبعد كل هذا ما زلت مصراً على أنك تضع كاترين في المكان الأول من حياتك.»

وقفت تتناول سترتها عن ظهر الكرسي لتقفل راجعة إلى الداخل، بعد ان منعها انزعاجها من البقاء لحظة واحدة. ولكنه تقدم أمامها يقطع عليها الطريق وهو يقول: «إنني لا أصر على شيء. ولا يهمني إذا كنت تصدقينني أم لا، يا آنسة مارشال. فكل ما يهمني هو أنك كنت تغرسين مثل هذه الأفكار في ذهن كاترين.»

فقالت: «أغرس أفكاراً؟ والآن إسمع، إن هذا الأمر غير صحيح إطلاقاً. إنني لم أقل كلمة واحدة قط. ولا كلمة يمكن أن تفسر على أنها انتقاد لتصرفك. إنني لست من عدم الإحساس بحيث أقوم بمثل هذا العمل.» ورفعت رأسها تنظر في عينيه لتندم حالاً على تصرفها ذاك بعد ان رأت البرود في اعماق تينك العينين. وقالت: «إن كاترين تحب الأرض التي تسير أنت عليها، يا سيد ماك أليستر. وهنا المشكلة فلو أنها كانت تراك على حقيقتك المجردة، لوضعت ذلك في الاعتبار وواجهت حقيقة انك لست ذلك المزيج بين الرجل المثالي والأمير الساحر.»

وارتسمت على شفتيه المتوترتين ابتسامة هي أدنى إلى التهديد وهو يقول: «وما هي حقيقتي المجردة؟ تعالي هنا يا آنسة مارشال، لا تقفي هناك بعد أن بلغ الحديث بنا هذا الحد. لقد قلت إن على كاترين أن تراني على حقيقتي. فما معنى هذا بالضبط؟ كيف ترينني أنت نفسك في الواقع؟»

وشعرت بميل شديد في أن ترد عليه. ولكنها استطاعت أن تتمالك نفسها وتضبط أعصابها لتقول: «إن رأيي ليس له أية أهمية. المهم هو كيف تراك ابنتك.»

فقال: «إذن، فأنت قد اعترفت بذلك في النهاية. أليس كذلك؟ اعترفت بأن رأي كاترين هو المهم وليس رأيك؟»

ونظر إلى وجهها المتضرج وشفتها السفلى الممتلئة التي كانت ترتجف، وتابع قائلاً: «ربما كان تصرفك ليلة أمس يستحق هذا»

فقالت: «لا أدري ماذا تقصد بقولك هذا؟» وحاولت أن تستدير حوله ولكنه استدار ليقطع عليها الطريق مرة أخرى، وقد عقد ذراعيه على صدره وهو يتمعن في ملامحها.

وقال: «إنك لست كاذبة ماهرة وحسب يا آنسة مارشال، إنك تعرفين جيداً ماذا أقصد. إنني لم أنس ما حدث وكيف هاجمتني كامرأة مجنونة.»

فقالت: «أنا؟ أنا هاجمتك؟»

وتفجرت الثورة في أعماقها وهي تستدير إليه قائلة: «إنك أنت.. أنت الذي...» لماذا تجد صعوبة في أن تنطق ولو بكلمة بسيطة واحدة؟ أن تقول له بهدوء ووضوح، إنه هو الذي ابتدأ ذلك بمحاولته تقبيلها؟ كانت تحارب في معركة صامتة في داخلها، ولكنها تخلت عن ذلك عندما شاهدت السخرية القاسية في عينيه، فعادت تنظر إليه قائلة: «إنك أنت الذي هاجمني ليلة أمس. لقد دخلت غرفتي دون دعوة وشتمتني ثم هاجمتني جسدياً. ولو شئت لأمكنني رفع دعوى عليك لهذا.»

فقال: «أيمكنك هذا حقاً؟ إنني أشك في ذلك. خصوصاً،

إذا رأى الناس البرهان في عمل يديك في وجهي.» وأدار جانب وجهه، وشعرت هي بالغثيان وهي ترى خدش أظافرها الغاضبة يمتد من أذنه إلى انحناء فكه القوي.

وقالت بصوت خجل منخفض: «لقد كان الذنب ذنبك. ما كان ينبغي لك أن تقول ما قلته، ولا أن تحاول لثمي بهذا الشكل.» ونظر هو إليها متفرساً. ثم قال: «ربما كان الأمر كذلك. ولكن يجب أن تسلمي بواقع أنني كنت، وما زالت، ثائراً وبالغ القلق على كاترين. وأنا مقتنع بأنك مسؤولة وتتحملين أكثر اللوم لغرسك أفكاراً غير طبيعية في عقلها، مهما كان السبب الذي دعاك لذلك.»

فقالت: «إنني لم أفعل ذلك. لماذا لا تحاول أن تكون منطقياً؟ إنني لم أحاول مطلقاً أن أؤثر في تفكير كاترين بأي شكل، ولا أن أقوم... بتمثيل دور عليك. بصراحة يا سيد ماك أليستر إن في استطاعتي أن أعيش سعيدة تماماً دون رجل. لهذا دع عنك التفكير أنني كنت أضع خطة لاجتذابك إليّ.»

فقال: «هذا ما تقولينه الآن، ولكن من الطبيعي أن تفعلي ذلك. إذ أن من الصعب عليك الاعتراف بأن ما تقومين به الآن ما هو إلا الرد العكسي.»

وهز رأسه وقد تألق سالفاه الفضيان في أشعة الشمس. وتابع قائلاً: «ولكن ليس ثمة شيء يجعلني أتسامح معك في ما فعلت. لقد كانت كاترين سعيدة تماماً وصبية متفهمة تماماً إلى أن وقعت تحت تأثيرك. وما كانت لتتصرف قط بهذا الشكل الشائن، مثل الهرب، لو لم يضع أحد هذه الفكرة في رأسها.»

فقالت: «أهذا ما تظن؟ إنك، إذن، تتهمني في توجيهها لهذا العمل؟ تابع كلامك يا سيد ماك أليستر. إذ لا يمكن أن تكون في مثل هذا الغباء الذي يجعلك تظن ذلك حقاً. أولاً، كان من المفروض حسب قولك أن أضع خطة لاجتذابك، ثانياً، أن استعمل تأثيري على ابنتك لكي أحملها على الهرب. إنك حقاً مجنون. إن آخر ما أريده هو ما حدث لكاترين، هذا عدا ما تظنه من شعوري نحوك.»

فقال: «وكيف تفسرين تصرفها إذن؟ إنك تدعين معرفتك بابنتي. أخبريني إذن عن دافعها إلى هذا التصرف.»

لماذا تلاشى غضبها فجأة وهي تسمع صوته؟ هل هي رنة الألم في لهجته؟ لم تستطع سارة أن تقرر. كل ما كانت تعرفه هو أنها، منذ لحظات، كانت تتمنى لو تستطيع أن ترى جيمس ماك أليستر متألماً... ولكنها الآن، وهو يتألم، تتمنى لو استطاعت أن تخفف عنه.

فقالت: «لا أظن أن الأمر بمثل هذه السهولة. إنني أتصور أن ثمة مزيجاً من عوامل متعددة دفعها إلى هذا، وهي وحدها التي تستطيع شرحه لنا.»

فقال: «ولكن كان عليها ان تدرك مقدار القلق الذي ستسببه لي بهذا العمل. أليس ثمة حساب لهذا؟ اللعنة على هذا. إنني مستعد لأن أقوم بأي شيء في العالم من اجلها وهي تعلم ذلك... إنها تعلم ذلك.»

وقالت سارة بصوت رقيق في محاولة لتخفيف الآلام التي شعرت بها تمزقه: «هل هي تعلم ذلك حقاً؟»

ربما كانت لا توافقه على الطريقة التي كان يعامل بها ابنته، ولكنها لا تستطيع إنكار أن قلقه عليها كان بالغاً

وحزنه حقيقياً. والحزن هو شعور عرفته هي جيداً خلال السنوات الماضية.

وقال هو: «إنها تعلم بالطبع. لا بد أن يكون ذلك. إن كل ما أقوم به هو من أجلها. لكي أمنحها حياة فضلى وأؤمن مستقبلها.»

وابتعد عنها ثم أخذ يشدد قبضته على حاجز الشرفة الحديدي حتى رأت عضلات أصابعه تكاد تخترق جلده. وتابع قائلاً: «لم يكن من السهل عليّ أن أربي طفلة بمفردي. فكيف إذا كانت هذه الطفلة هي ابنتي؟ عندما ماتت زوجتي فكرت طويلاً في أفضل حلٍ لمشكلة كاترين، ورأيت أن ذلك في مدرسة داخلية مما يمنحها استقراراً أفضل في حياتها. ذلك أن عملي يتطلب مني القيام بأسفار متعددة، فلم أشأ أن أتركها في عهدة الخدم ومدبرات المنزل. وبدا لي اختياري ذاك مثالياً. خصوصاً عندما بدت عليها السعادة لهذا الأمر. والآن، تأتي أنت لتخبريني أن ما كنت أظنه في مصلحتها كان خطأ؟»

واستدار يواجهها بوجه متجهم عدائي وهو يتابع: «لا أقبل ولن أقبل منك هذا أبداً، يا آنسة مارشال.»

وارتجفت سارة على الرغم من دفء أشعة الشمس. فأسرعت تجذب أطراف السترة الصوفية تلتمس الدفء.

قالت: «لم أقل قط انك كنت مخطئاً في إرسالها إلى المدرسة الداخلية. لقد كانت دوماً سعيدة معنا إلى وقت قريب.»

فقال: «إلى أن وقعت تحت تأثيرك غير المستقر.» واستقام في وقفته ليشرف عليها بشكل جعلها تتراجع

خطوة إلى الخلف، وقد تملكها خوف مفاجيء من نظرته الغاضبة إليها.

لا بد أنه قرأ أفكارها، فابتسم ببطء وما زال وجهه عابساً وهو يقول: «لا تقلقي فأنا لست من الحماقة بحيث أكرر غلطتي.» ورفع يده يلامس الشرخ الذي مازال واضحاً في وجنته وهو يطيل النظر إليها، إلى أن سرى الاحمرار إلى وجهها وعنقها. وتابع قائلاً: «يمكنك أن تقولي ما تشائين يا آنسة مارشال. وتحتجي بقدر ما تريدين، ولكن لا شيء من ذلك سيغير من فكرتي عمن تقع عليه المسؤولية. وعندما أجد كاترين، سأقوم بما عاهدت نفسي عليه وهو أن لا أدع طفلاً يقع تحت تأثيرك مرة أخرى. وأن لا يعاني آباء آخرون مما عانيته أنا من الآلام. إنك لن تزاولي التعليم مرة أخرى يا آنسة مارشال. إنني سأضمن ذلك.»

تركها وخرج دون أن يتفوه بكلمة أخرى، تاركاً إياها ترتجف. لقد عنى كل كلمة قالها. إنه يريد أن يسلبها الشيء الوحيد الذي تملكه في حياتها. وبدا لها أنها لن تستطيع منعه من ذلك. وصدرت عنها آهة ألم سرعان ما رفعت بعدها يدها إلى فمها تقفله، وقد تملكها الخوف من أنها إذا هي استسلمت للضعف الآن، فسرعان ما تكون نهايتها. لقد علمتها الحياة ان تكافح من أجل ما تريد وقد سبق وقامت بهذا من قبل، فاجتازت كل العقبات إلى أن وصلت إلى هدفها. والآن، عليها أن تجد القوة، لكي تعاود الكفاح من جديد. إنما هذه المرة، الخصم ليس في داخلها بل هو شخص حقيقي حي. إن عليها أن تناضل ضد جيمس ماك

أليستر وتقنعه بأن ما هو بسبيله ضدها إنما هو خطأ تام.

اقبلت عليها ستيفاني قائلة: «هل ذهب؟ يا إلهي، لا أظنني رأيت من قبل شخصاً بمثل هذه الثورة! ولا أدري كيف أمكنك مواجهته.» ونظرت إلى سارة وقد ارتسم على وجهها الجميل مزيج من الهيبة والاعجاب. واغتصبت سارة ابتسامة مرتجفة مستعينة بهدوء اكتسبته طوال السنين الماضية، لاخفاء مشاعرها الحقيقية عن النساء الأصغر سناً. وقالت: «أظنه يعلم في اعماقه أنه يتحمل جزءاً من المسؤولية في ما حدث لابنته. وربما هذا ما جعله غاضباً. إن من الصعب على إنسان بأنانية السيد ماك أليستر أن يعترف بالخطأ.»

وضحكت ستيفاني وقد زال بعض توترها، وقالت: «أتمنى لو أنني مثلك أستطيع فهم دخائل الناس.» كان الاطراء صادقاً، إنما هل كان صحيحاً؟ هل هي حقاً تفهم دخائل الناس؟ ربما كانت ستوافق على هذا القول قبل يوم أو نحوه. ولكن، بعد أن حدث ما حدث بينها وبين جيمس ماك أليستر، فقد ترددت في ذلك. لقد كان لجيمس ماك أليستر قانونه الخاص. لم يكن ثمة أحد يدرك، كيف يعمل عقله إلا إذا شاء هو. فهو لا بد أن يدرك بنفسه، خطأه في أن يحاول تدمير مهنتها.

قالت: «إن هذا جزء من عملي يا ستيفاني.»

فقالت ستيفاني: «وهذا هو الجزء الذي لا أحبه.» وهزت كتفيها وهي ترى نظرة الفزع في عيني سارة، وتابعت: «هل ترين في هذا ما يشبه خيبة الأمل؟ إنه ما أشعر به تجاه مهنة التعليم.»

ومشت تتطلع من الشرفة إلى الأشجار التي تفصل الشرفة عن الشارع. وتابعت: «لا أظنني سأمكث في هذه المهنة طويلاً يا سارة، إذا شئت الحقيقة. لقد ابتدأ عندي هذا الشعور بعدم الارتياح قبل القيام بهذه الرحلة. إنما الآن...» وابتسمت فجأة وهي تفتح ذراعيها على اتساعهما وتقول: «باريس، يا سارة. إنها مركز العالم المتمدن. ألا تجعلك تريدين أن تتركي كل شيء، لكي تتعرفي إلى الدنيا؟ أشعري بالحياة قبل أن تصبحي أكبر سناً من أن تمتعي نفسك. هنالك حياة أوسع، ولا أريد أن أمضي بقية حياتي في تعليم فتيات ليس لديهن أقل رغبة في معرفة مكان جبل كلمنجارو أو كيفية تكوين حجر الصوان.»

ضحكت سارة بمرارة وهي تقول: «أظنني مررت بهذا الطور. إن فكرتي عن الحياة الحسنة هي أن أبقى في مهنتي هذه.»

فقالت: «مررت بهذا؟ أوه، ولكننا كنا نتكلم عنك في قاعة الجلوس ذلك اليوم.»

ورأت على ملامح سارة تعبيراً جعل الدم يتصاعد إلى وجهها، ولكنها استطردت: «إنني أعرف، أعرف.. ولكنه من الطبيعي أن يتملك الفضول بعض الناس. إنك ماذا؟ في الثلاثين.. الواحدة والثلاثين؟ ولكن، يبدو أنه ليس لديك حياة خارج المدرسة! لماذا يا سارة؟ لماذا تدفنين نفسك في ذلك المكان؟ إنك ما زلت شابة، ولكن، إذا لم تنتبهي إلى نفسك فسيفوتك القطار.»

فقالت سارة: «شكراً. إنني أحب حياتي كما هي الآن. فلا

تقلقي لأجلي. والآن، هل لديك البرنامج لهذا اليوم؟ إذا لم أكن مخطئة فقد كان معبد نوتر دام في المفكرة.»

تنهدت ستيفاني ولم تتراجع أمام رغبة سارة في تغيير الموضوع، وقالت: «إنك لا تخطئين أبداً يا سارة، وهذه هي المشكلة. يجب أن يكون لديك الكثير مما يسترعي اهتمامك إلى جانب البرنامج!»

فقالت سارة: «ربما، ولكنني المسؤولة عن هذه الرحلة.» كان ثمة برود في لهجة سارة وهي تدلي بهذا الجواب. ولكنها فشلت في أن تتفادى الرعشة التي شعرت بها عندما تكلم جيمس ماك أليستر من خلفها، قائلاً: «إنني مسرور لسماع هذا. فإن هذا سيسهل من الأمور في الأيام القليلة القادمة، إذا أنت اعتبرت أن هذه الرحلة وما حدث فيها ينضوي تحت مسؤوليتك.»

استدارت سارة تنظر إليه وقد كسا وجهها استفهام مؤدب. ولكنها لم تستطع أن تحمل عضلاتها على الاسترخاء، وجسدها بأجمعه على عدم التوتر الذي غزا أعضاءها. وسألته: «لماذا يخامرني شعور أن ثمة غرضاً لك من وراء هذه الملاحظة يا سيد ماك أليستر؟» فأجاب وهو يتقدم إلى الداخل: «ربما لأن هناك غرضاً فعلاً.» وتوقف أمام الباب حتى لا يدع لها فرصة لترك الشرفة إلى الداخل إلا إذا شاء هو ذلك. وقال: «لقد كنت أتحدث إلى السيدة سيكوت قبل قليل. وقد أخبرتني بأن فيليب ليس من باريس، بل من بلدة صغيرة قرب الحدود الأسبانية. وإنه إبن أحد انسبائها البعيدين. وقد وظفته في هذا العمل عندها لهذا السبب.»

فقالت: «فهمت. إن هذا شيء هام يا سيد ماك أليستر. هل

هنالك ما يفيد في هذه القصة؟» ونظرت في ساعتها وهي ما زالت تشعر بالتوتر. إنه يحاول شيئاً ما. لقد أدركت الآن ذلك. أدركت أنه يريد أن يخبرها شيئاً لا تود سماعه. ولكنها شعرت بعجزها عن إيقاف انكشاف الأحداث واحداً تلو الآخر.

قال: «إنني طبعاً ما كنت لأضيع وقتي لو لم يكن هناك ما يفيد بالنسبة إلى ابنتي الضائعة.» وعقد ذراعيه فوق صدره وهو مستند إلى جانب الباب ومضى يتفرس فيها بنظرات عدائية متابعاً: «كما اخبرتني السيدة سيكوت بأن فيليب كان يشعر بالوحدة بعيداً عن موطنه. وقد لمح إلى نيته العودة إلى بلدته مع إثنين من الخدم. وهما مقتنعان بأنه قد ذهب إلى هناك مصطحباً كاترين معه.»

قالت: «لقد فهمت. لا بد أن الشرطة قد بُلغت.»

قال: «إنني أريد أن أتصل بهما هاتفياً، إذ لا يسعني الجلوس هنا وانتظار ما سيحدث. إن احضار كاترين هو عملنا الآن.»

فقالت: «عملنا؟ ماذا تعني بذلك؟»

لقد كان لديها شعور بأنها تنجذب شيئاً فشيئاً نحو أمر لن يعجبها.

فقال: «الأمر بسيط. أريد أن تعود إليّ ابنتي في أسرع وقت ممكن، قبل أن يفسد ذلك الفتى ما لا يصلح. ولهذا أريد أن ألحق بها هي وفيليب إلى بلدته. وأنت يا آنسة مارشال ستأتين معي.»

فقالت: «معك؟ أنا؟ ولكن.. كلا... إن هذا أسخف شيء سمعته. لا يمكنني الذهاب معك. عليّ الاهتمام ببقية الفتيات. إنهن... لا يمكن أن يبقين بمفردهن.»

فابتسم بعبوس بينما بدا التصميم على وجهه بوضوح وهو يقول: «عرفت أنك ستقولين هذا. ولهذا أعطيت نفسي حرية التصرف في الإتصال هاتفياً برئيستك في المدرسة، وهي سترسل من يحل محلك في أول طائرة قادمة، لكي يكون في إمكانك الذهاب معي. إنها تشعر، تبعاً لظروف ما حدث، أن من واجبك الذهاب معي. في الواقع، لقد بلغ بها الأمر حد التأكيد أن هذا ما يتوجب عليك القيام به. لهذا، أعدي حوائجك يا آنسة مارشال، لأننا سنبدأ رحلتنا خلال نصف ساعة.»

واستدار عائداً إلى الداخل، ولكنه ما لبث أن توقف وأدار رأسه ليقول من فوق كتفه: «يمكنك أن تعتبري هذا فرصة أخرى لك. فإذا ذهبت معي لمساعدتي في التفتيش عن كاترين وإعادتها، فإنني قد أعيد النظر في ما صممت عليه بالنسبة لمستقبلك في التعليم.»

واختفى داخل الفندق تاركاً سارة تحدق في أثره وقد بدا الهلع في عينيها. وأرادت أن تركض وراءه لتقول له أنها لن تذهب معه.. ولكن، كيف يمكنها أن تفعل ذلك؟ إنها إذا تسببت في اغضابه الآن، فهي ليست من الحماقة بحيث تتصور أنه سيتجاوز عن الأمر. ذلك أن جيمس ماك أليستر رجل ذو نفوذ ويعرف أناساً في مراكز عليا كثيرة. فهو في إمكانه أن يحطم سمعتها إذا شاء. فلا تجد مدرسة ترضى بأن تمنحها عملاً في المستقبل. ولكن، كيف يمكنها أن تتقبل فكرة مرافقته في مثل هذه الرحلة اليائسة للتفتيش عن كاترين عبر فرنسا؟

الفصل الثالث

كان الرصيف جافاً، ولكن الهواء كان يحمل ذاك الشذا النقي، الذي سرعان ما تبدده ساعات الازدحام الثقيل في المدينة. وخرجت سارة بحقيبة أمتعتها إلى السلم، ثم وقفت لحظة، وقد أسكرتها نشوة ربيع باريس. وأغمضت عينيها، وعادت بذاكرتها القهقرى إلى يوم كانت تلميذة، حيث أمضت سنة دراسية في جامعة السوربون. كانت أياماً رائعة.. أروع أيام حياتها. كانت أياماً ذهبية شعرت أثناءها بالعالم طوع بنانها. لم تتوقع ان تكون حياتها مغامرة كبرى. وهذا ما جعل الزمن الذي تلا ذلك أكثر سوءاً. ولو أن في إمكانها أن تدير عقارب الساعة إلى الوراء، لادارتها إلى تلك الأيام وأبقتها ثابتة إلى الأبد.

«هل ستبقين مستغرقة في أحلام اليقظة كل اليوم هكذا؟ لقد أضعنا الكفاية من الوقت حتى الآن. تعالي.»

أخرجت اللهجة الآمرة، سارة من شرودها، فنظرت نحو الطريق لترى جيمس ماك أليستر واقفاً بالقرب من سيارة سوداء فارهة، وقد وضع يديه على وركيه وقد كسا الضيق ملامحه. وساورها الخوف لحظة، ما لبثت بعدها أن تنفست بعمق لتهدأ أعصابها بعد ذلك. ومن ثم أخذت تجرجر حقيبتها على الدرج. لقد سبق واتصلت هاتفياً بالمدرسة وتكلمت مع الرئيسة وذلك قبل أن تحزم أمتعتها، آملة أن تجد طريقة تقنعها بأن هذه الخطة بأكملها كانت حمقاء.

لكن السيدة هانت، الرئيسة، كانت واثقة من أن هذه هي الطريقة الوحيدة المجدية في هذه الظروف. كانت لهجة الرئيسة حادة على غير العادة، مما ترك عندها فكرة أنها تعتبرها الملومة في قضية اختفاء كاترين. ولم يكن لديها شك في أن جيمس ماك أليستر كان وراء ذلك. لم يكن ذلك عدلاً، ولكن لم يكن ثمة فائدة من الاحتجاج. فقد كان اهتمام السيدة هانت يتعلق فقط بسمعة المدرسة. وإذا كان ثمة طريقة لاستعادة كاترين سالمة، في الوقت الذي تبقى فيه الحادثة نفسها في طي الكتمان، فذلك ما يهم، أما مشاعر سارة فلم تكن تساوي شيئاً.

قال جيمس ماك أليستر وهو يضع الحقيبة في صندوق السيارة ويقفل الغطاء: «ماذا يوجد في هذه الحقيبة؟ أسلحة؟» ونظر إليها ببرود، ولكنها تجاهلته. لقد صممت على أن تبقى هادئة طوال الرحلة، وأن لا تسمح لغضبها الأحمق المتوحش أن يتفجر كما حدث تلك الليلة وكاد يتكرر هذا الصباح. لقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لكي تستقر الأمور معهما.

قالت وهي تتخذ مقعدها في السيارة: «قد أحتاج إلى تبديل ثيابي في حال اضطررنا للمبيت. وربما العثور على كاترين سيستغرق مثل هذا الوقت.»

أخذت تسوّي من ثنيات تنورتها بهدوء أخفى ضيقها من كلامه.

صعد هو إلى جانبها ثم أدار محرك السيارة. وما لبث أن انضم إلى حركة السير.

قال: «يمكن أن يأخذ الأمر وقتاً أطول من ذلك. أعدي

نفسك لهذا، فإن علينا أن نسير عدة مئات من الأميال وبعد ذلك نصعد الجبال في طرق وعرة.»

قالت: «ألم يكن من الأفضل أن نركب الطائرة إلى تولوز ومن ثم نبدأ في البحث؟ إننا هناك نكون أقرب إلى موطن فيليب. إذ أن تجوالنا في طرق نحن غير متأكدين منها، إنما هو مضيعة للوقت. هذا إذا كانا قد توجها أصلاً إلى هناك.»

هز رأسه وعيناه مركزتان على الطريق أمامه وهما يتركان الشارع الفرعي، ليدخلا في زحمة السير في قلب المدينة. وقال: «كلا، ليس في ذلك مضيعة للوقت.» وتناول خريطة مجعدة من الصندوق أمامها، وناولها اياها، وهو يقول: «لقد أعطاني اياها أحد الخدم الذي وجدها في غرفة فيليب، القي عليها نظرة وحاولي أن تقرأي الكتابة اليدوية عليها.»

نظرت سارة في الخريطة ممعنة النظر في الملاحظات المدونة على الهوامش الضيقة، قبل أن تنظر إليه بحيرة وهي تقول: «يبدو أن هذا خط كاترين ولكنني غير متأكدة.»

قال: «إنه خطها. من الواضح أنها قد ساعدت في التخطيط. ولكن، هل عندك فكرة عن كيفية اعتزامها السفر كل هذه المئات من الأميال؟»

كان في صوته العميق لهجة غاضبة جعلت سارة ترتعش دون إرادة منها.

أجابت: «ليس تماماً. هل كان ذلك بالسيارة؟»

ضحك بخشونة قائلاً: «كلا. إن فيليب يفخر بحيازته دراجة نارية، بقي عدة أشهر يعمل في ضبط اجهزتها بيديه. ويظهر أنهما قررا السفر بواسطتها، وقد استنتجت أن ليس

أمامهما حظ كبير في قطع مسافة بعيدة بهذه الطريقة. هل أدركت الآن لماذا لم أفكر بالسفر جواً، وفضلت انتظار وصولهما؟ إن أي شيء يمكن أن يحدث في هذا الطريق. يا إلهي، يكفي أنها هربت مع فتى لا تكاد تعرفه. ولكن أن يكون ذلك بواسطة دراجة نارية ركب أجهزتها بنفسه...! إن أي شيء هو ممكن الحدوث لهما.. إنني لا أستبعد أن يلقي بها ذلك الفتى في الطريق إذا تعطلت الدراجة النارية وأصبحت هي تشكل عبئاً عليه.»

قالت: «لا أظن، استبعد هذا. ذلك أن فيليب يبدو... حسناً، إنه يبدو فتى لطيفاً هادئاً، لقد تحدثت إليه في عدة مناسبات. إنني متأكدة من أنه سيعتني بكاترين.»

قال: «إن هذا يريح أفكاري يا آنسة مارشال. أشكرك لشهادتك الطيبة فيه. لقد ارتحت الآن بعد أن عرفت أن الفتى الذي هربت معه ابنتي، قد نال موافقتك.»

تضرج وجه سارة ونسيت خطتها في أن تبقى هادئة على الدوام. وقالت: «ليس ثمة حاجة بك إلى السخرية. يحسن بك على الأقل، بعد أن أجبرتني على مرافقتك، أن تكون مهذباً. وإلا، فيمكنك أن تقف وتنزلني هنا. إذ ليس في إمكاني احتمال طباعك السيئة لعدة أيام.»

قال: «عليك يا آنسة مارشال، احتمال كل ما يصدر مني، ذلك أنك لست في وضع يؤهلك لطلب أي شيء. لأنك لو كنت قد قمت بعملك جيداً ثم انتبهت إلى سير الأمور، لما حدث ما حدث. لهذا، فإن تأدبي ومراعاة شعورك هما آخر اهتماماتي.»

قالت: «لقد كنت دوماً أقوم بعملي جيداً. وأكره أن أسمع

منك النقيض. ولا تنس أنني حاولت تحذيرك من أن ثمة شيئاً خاطئاً يعتمل في نفس كاترين. ولكنك تجاهلت تحذيري ذاك.»

قال: «ها قد عدنا إلى ذلك الموضوع. أليس كذلك؟ لقد حاولت تحذيري... مَ حاولت تحذيري؟ هل كنت تظنين أن كاترين لم تكن سعيدة؟» وحوّل أنظاره عن الطريق، لتتشابك مع أنظارها فترة وقد بدا فيها الانزعاج، وتابع يقول: «لا أذكر أنك جعلتني أفهم جيداً ذلك الأمر. لقد بدا عليك أنك أكثر اهتماماً بانتقاد طريقة حياتي من أن تركزي على اهتمامك بكاترين. وأكثر من هذا، فأنت لم تذكري شيئاً عن قضية الهرب. فلو كنت تقومين بعملك كما يجب، يا عزيزتي الآنسة مارشال، لكان عليك أن تجدي شيئاً تخبرينني به بدلاً من المداورة، وتعييري بأنها كانت غير سعيدة وأن ذلك كان خطأي أنا.»

قالت: «ولكنه كان خطأك فعلاً. ألا تستطيع أن ترى أن عدم اهتمامك الكافي بكاترين دفعها إلى هذا العمل؟»

قال: «كلا.. لا أستطيع رؤية ذلك. انني لم أدفعها إلى فعل أحمق كهذا. ولكنني أعرف من الذي فعل ذلك. إنني أعرف أول من غرس هذه الفكرة في رأسها. وصدقيني، أنك لن تُتركي دون عقاب على ذلك.»

ما الذي كانت تتوقعه؟ انه عاد إلى رشده وأدرك أنه كان مخطئاً؟ ليس إلى ذلك سبيل، ذلك أن اليوم الذي يعترف فيه جيمس ماك أليستر المتكبر بخطئه، هو اليوم الذي تحدث فيه معجزة!

مضى بهما الطريق بصمت. لم يكن صمتاً مريحاً،

وإنما كان مشحوناً بالغضب والمشاعر السيئة. وقد جعل هذا سارة تشعر بأنها على شفا جرف. فقد توتر جسدها كلياً. وحاولت الاسترخاء باسناد رأسها إلى الخلف على مسند المقعد وهي ترقب باريس في خضم حركة السير. والسائقون الباريسيون مشهورون بقيادتهم السيئة. ولكن يظهر أن هذا لم يؤثر على قيادة جيمس ماك أليستر، الذي كان يقود سيارته بثقة وثبات عبر المدينة إلى أن وصل إلى الطريق العام المؤدي إلى أورليان. ولثانية واحدة فقط رمقها بنظرة كانت هي أثناءها، تدير رأسها إليه. وتلاقت أنظارهما لحظة لتعود، بعدها، فتشيح بوجهها بعيداً وقد شعرت بأنفاسها تختنق في صدرها، بينما كانت السيارة تسرع في سيرها تاركة باريس خلفها. لقد كانا الآن في طريقهما حقيقة، هي وهذا الرجل الذي يبدو أنه كان يثير في أعماقها مشاعر غريبة لم تعرفها من قبل. وتملكها شعور غامض بأن حياتها لن تعود كما كانت بعد أن تنتهي هذه الرحلة. وأخافها تفكيرها هذا، أخافها بقدر ما أخافتها ردة الفعل التي شعرت بها نحو جيمس ماك أليستر. إنها لا تريد أن يحطم شيئاً من عالمها الصغير الآمن. إنها لا تريد أن تُرغم على ترك الملجأ الذي أقامته لنفسها. ولكن، هو ذا وجودها تشعر به يتبدد، تاركاً إياها ضعيفة في مهب الرياح مرة أخرى.

آلمتها عضلات عنقها التي تصلبت من البقاء مدة طويلة في اتجاه واحد. وصدر عنها أنين خافت وهي تحرك رأسها مستغربة صلابة هذه الوسادة تحت وجنتها. وفتحت

عينيها لتشعر بالوعي يعود إلى ذهنها. واستقامت في جلستها وهي تمر بيدها على شعرها، تنظر في كل اتجاه ما عدا إلى الرجل الذي كانت تريح رأسها على كتفه.

قال: «ظننتك ستنامين طوال بعد الظهر. إنني جائع فدعينا نجد شيئاً نأكله.»

ألقى عليها نظرة وهو يخرج من السيارة. لم يكن يبدو عليه الاهتمام كلياً لاتخاذها كتفه وسادة لرأسها، ولكنها اهتمت هي نفسها بذلك. لقد شعرت بالحرج المحرق بجناحها، بعد أن وجدت جسدها مستنداً إليه بهذا الشكل... المبالغ في المودة.

جرى الدم في عروقها حاراً وهي تفكر في أنها نامت على كتفه. وأشاحت بوجهها حين نظرت إلى السيارة خلفه، متشاغلة بتسوية شعرها ولفّه إلى الوراء بالمشابك. ولكن يديها كانتا من الارتعاش بحيث كانت المشابك تعود فتتعثر في يدها.

قال: «ليس لدينا الوقت الكافي لكي تشبكي شعرك كالمعتاد.»

عاد إلى داخل السيارة، وجرها عبر المقعد ليمد يده ويسحب بقية المشابك من شعرها، وبسرعة، تخللت أصابعه شعرها الكث اللامع ثم تفرس فيها بهدوء للحظة قائلاً: «هذا أحسن كثيراً. إنه أفضل من السابق بكثير. والآن، هل لنا أن نأكل شيئاً؟ أريد أن نصل إلى «ليموج» قبل المساء فقد نجد كاترين هناك. فهذه إحدى الاستراحات في الطريق. ولكن، إذا بقيت تضيعين الوقت فسنكون سعيدين إذا نحن وصلنا إلى «شاتورو» قبل هبوط الليل.»

سحب المفاتيح من السيارة، ثم أقفل بابها قبل أن يتوجه إلى المقهى القريب. ونظرت سارة في أثره وقد ساورها ما يشبه الرعشة. ومرت بيدها على شعرها المنسدل لتشعر بالغضب يتفاعل في داخلها مرة أخرى. كيف جرؤ على هذا العمل؟ وما هذه الوقاحة التي دفعته إلى نزع المشابك من شعرها بهذا الشكل؟

نظرت ثائرة إلى وجهها في مرآة السيارة وهي تتساءل، كيف يمكنها إعادة تنظيم شعرها دون مشابك؟ وعبست وهي ترى نفسها وقد اختلف منظرها عن ذي قبل، بعد أن استدار حول وجهها شعرها الناعم البني المجعد لينسدل على كتفيها. ولاحظت أن ذلك قد أسبغ شيئاً من الرقة على ملامحها، كما أن عينيها بدتا أكثر اتساعاً من المعتاد. وتصورت، للحظة، أن الزمن قد رجع بها إلى تلك السنوات التي كانت فيها طالبة تترك شعرها على الدوام منسدلاً بإهمال كما هو الآن، لتتملكها نفس المشاعر التي كانت تغمرها في ذلك الزمن... ويا له من زمن بعيد. ولامست خصلة من شعرها تسويها حول وجهها، لتبعد يدها فجأة وقد شعرت بحماقتها. إنها لم تعد تلك الفتاة الصغيرة، ولكنها الآن امرأة ناضجة عاقلة. امرأة لا تحلم بأن تخرج إلى الناس وكأنها استيقظت لتوها من النوم. وفي قول جيمس ماك أليستر ان شكلها يبدو أفضل من السابق، سبب كافٍ لأن يجعلها تقوم باصلاح ما أحدثته يداه في منظرها، على الفور.

فتحت حقيبة يدها، واخرجت منها شريطاً مطاطياً شدّت به شعرها إلى الخلف بشكل ذيل الحصان. ولم يكن هذا هو

الطراز الذي تفضله عادة لشعرها، ولكن هذا كان أفضل ما أمكنها عمله على عجل. وفتحت باب السيارة وخرجت متجهة إلى المقهى. وتوقفت قليلاً لكي تستطيع عيناها مواجهة أشعة الشمس الساطعة.

كان جيمس ماك أليستر جالساً إلى مائدة بجانب نافذة وفي يده كوب من القهوة. ورفع أنظاره إليها وهي تسحب كرسياً لتجلس عليه إلى جانبه. واستقرت عيناه على شعرها، بينما أشاحت هي بوجهها بازدراء، كي لا يدلي بأية ملاحظة، ولكنه لم يقل شيئاً، على كل حال، وهو يضع قائمة أنواع الطعام أمامها على المائدة، ثم يدير وجهه متطلعاً من النافذة، وعجبت هي من نفسها إذ شعرت بنوع من جرح الاحساس لهذا التصرف منه. وراقبته لحظة، ثم حملت نفسها على الالتفات إلى قائمة الطعام. ولكنها وجدت أن من الصعوبة أن تركز أفكارها على اختيار أنواع الطعام. إذ كانت أنظارها لا تنفك تميل نحو جيمس ماك أليستر، لتستقر على جانب وجهه وقصة شعره الأسود بسالفيه الفضيين اللذين ينحدران إلى ياقة القميص المحيطة بعضلات رقبته القوية.

كم هو عمره؟ في أواخر الثلاثينات؟ أم أوائل الأربعينات؟ إن كاترين في السادسة عشرة من عمرها تقريباً، ومنطقياً يجب أن يكون عمره كما ظنت، ولكن، لم يكن ثمة أية إشارة إلى ضعف أو ارتخاء في جسده القوي وكذلك في خطوط وجهه القوية. كان يبدو رجلاً متكامل الرجولة والعنفوان.. رجلاً بالغ الجاذبية والازعاج إلى حد

كان تأثيره عليها أكثر مما يجب. لقد سبق وقابلت رجالاً آخرين كانوا ممتلئي الجاذبية من آباء تلميذاتها، ولكن لم يكن لأي منهم مثل هذا التأثير الذي كان لجيمس ماك أليستر عليها.

قال: «من الأفضل أن تسرعي في اختيار ما ستأكلين، لأننا سنتابع السير بعد نصف ساعة. وإذا كنت، عند ذاك لم تنتهي بعد من طعامك، فالذنب عندها، سيكون ذنبك. كما أنني أنبهك إلى أنني لن أطلب طعامي مما هو مذكور في قائمة الطعام.»

كادت تقفز من مكانها إذ كلمها فجأة، ورفعت عينيها إليه شاعرة بالذنب، ليتضرج بعد ذلك وجهها من شعورها بالحرج إزاء النظرة الساخرة التي بدت في عينيه. وقالت: «لقد جعلتني أشعر بعسر الهضم. إنني متأكدة من أن خشونتك تذهب بشهيتي يا سيد ماك أليستر.»

ما الذي جعلها تقول ذلك؟ ربما كان ذلك بدافع النفي، في أعماقها لأفكارها تلك بشأنه. وتصاعد شعور الحرج حتى كاد يحرقها. ولكنه، لدهشتها، لم يتفوه بكلمة، بل ضحك. وبعث صوته العميق رجفة في أوصالها.

قال: «ربما كان مظهري خشناً... ولكن، أليس من الممكن أن أكون رقيقاً في أعماقي؟ هل تريدين أن تتأكدي من ذلك، يا سارة؟»

قالت: «أنا.. كلا.. طبعاً لا... كما أنني لا أحب أن تدعوني باسمي الأول.»

قال وهو ينحني إلى الأمام مستنداً بمرفقيه على غطاء المائدة الأبيض، متفرساً في وجهها بإمعان: «لماذا؟»

نظرت إليه سارة لحظة ثم حولت أنظارها عنه بسرعة وهي تتعجب لانحباس نفسها بهذا الشكل. وتحولت أنظارها إلى ذراعيه اللتين لوحتهما الشمس ويكسوهما شعر أسود خفيف. وازدردت ريقها بصعوبة في محاولة للتخلص من التوتر المفاجيء في عنقها. ماذا جرى لها؟ لماذا تتصرف كالمراهقات؟

نبهتها أفكارها إلى درجة رفعت معها أنظارها لتصطدم بنظرته القوية التي كانت على بعد سنتمترات منها. وبدا أن الزمن قد توقف لحظات ليتركهما معلقين هكذا بعيدين عن العالم أجمع. ثم ابتسم ببطء وقال يكرر السؤال: «لماذا يجب عليّ أن لا أخاطبك باسمك الأول يا سارة؟»

قالت: «لأنني لا أحب ذلك.»

بدا جوابها هذا سخيفاً حتى في أذنيها. وكان صوتها خافتاً متقطعاً. وشعرت بالسخرية تجتاحه. وأعادها ذلك إلى وعيها لتتخلص من تلك الأفكار الحمقاء التي ساورتها في لحظة خطرة. واستقامت في جلستها وقد عاد إلى ملامحها، دون وعي منها، ذلك البرود الذي اعتادت أن تقابل به الآخرين. وقالت: «لأنني أفضل أن تبقى علاقتنا في حدود العمل الجاد. ليس ثمة مجال لأن تتجاوز علاقتنا حدود المعرفة التي اضطرتنا الظروف إلى أن يرغم الواحد على مرافقة الآخر. وكما أرى، ليس ثمة حاجة إلى زيادة التآلف بيننا.»

قال وهو يستعيد جلسته الطبيعية: «هكذا؟» ونظر إليها ممازحاً وهو يحرك حاجبه بشكل جذاب، ممعناً النظر فيها: «ولكن، ألا تظنين أن الأمور ستكون أكثر سهولة لو حاولنا

تطوير علاقتنا هذه؟ إننا، قبل كل شيء يا سارة، علينا أن نمضي أغلب أيام الأسبوع القادم معاً. ألا يدعو بقاؤنا على هذا الشكل، إلى الأسف؟»

قالت: «إن هذا لا يدعو إلى الأسف وإنما هو الواقع المنطقي. ذلك أن الأوقات التي نمضيها معاً، ما هي إلا للتفتيش عن ابنتك.»

هل هي نبرة يأس تلك التي ظهرت في صوتها؟ لقد تمنت أن لا تكون كذلك، كما تمنت أكثر أن لا يلحظ هو ذلك. إنها لا يمكن أن تبدي ضعفاً وهي ترافقه. إنه أكثر حنكة مع النساء منها مع الرجال.

قال: «إنني لا أنكر أن علاقتنا هي عملية، إن كل ما أقترحه، هو أن نجعل هذه العلاقة أكثر يسراً وراحة بقدر ما نستطيع. فنحن سنمضي عدة أيام وعدة ليالٍ معاً.»

لم يكن الأمر بالشكل الذي وصفه في ذلك الصوت البطيء العميق الذي بعث الرجفة في أوصالها. وبقيت سارة ساكنة متوترة في انتظار الخوف الذي يتملكها أثر كلمات كهذه. ولكنها لم تشعر بهذا الخوف. إنها لم تشعر سوى بهزة إثارة بعثت في جسدها وخزات أليمة. لقد كانت الصدمة من القوة بحيث جعلتها تدفع كرسيها لتقف وهي تنظر إليه، قائلة: «إنني لا أدري ما الذي تسعى إليه في ذهنك. ولكن دعني أوضح لك الأمر هنا والآن، اننا لن نمضي أية ليلة معاً بالشكل الذي تظنه.»

ارتسمت على شفتيه ابتسامة شبه قاسية، وهو يمعن النظر في وجهها بنظرات هي في برودة الثلج، قائلاً: «إنك تظهرين أغرب المتناقضات يا سارة، ويخامرني الشعور

أحياناً بأن عقلك يقول شيئاً في الوقت الذي يقول فيه جسدك شيئاً آخر مختلفاً.»

قالت وهي تلتقط حقيبة يدها: «إنني لا أفهم ماذا تعني بقولك هذا.» فأمسك معصمها الرقيق بأصابعه القوية، وهو يقول: «بل أنت تفهمين. إنك تفهمين جيداً ما أعنيه بقولي هذا. وهذا هو سبب خوفك. هل يخيف عقلك الصغير المتطهر أن يتملكك مثل هذا الاحساس؟ انك يمكنك أن ترغبي في رجل برغم الخطة التي وضعتها، وهي أن تمضي بقية حياتك دون رجل.»

قالت: «كلا.. إنك لا تعرف ما تقول. دعني أذهب، لا أريد أن آكل شيئاً. سأنتظر في السيارة.»

لوت ذراعها لتتخلص من قبضته، ولكن أصابعه اشتدت حول معصمها وهو يمسكها بثبات ولكن دون خشونة. وقال: «لا يمكنك أن تهربي دوماً من الحقيقة، يا سارة. وفي بعض الأحيان، لا يمكنك انكارها. فهي ستظهر يوماً بطريقة أو بأخرى. وهذا مثال على ما يمكن أن يحدث إذا أنت بقيت تخفين رأسك في الرمال.»

جذبها إليه حتى أمكنه أن يحدق في أعماق عينيها وتابع قوله: «لو كنت سلمت، بينك وبين نفسك، بحقيقة شعورك هذا لربما لم يكن لشيء من هذا أن يحدث، ولما كانت كاترين الآن تعيش خارج افكارك.»

نظرت إليه بذعر لا تكاد تفقه ما يقول، وقالت: «إنني...»

قاطعها قائلاً: «أرى أنك قد فهمت أخيراً. أليس كذلك؟ لقد كنت أنت من وضع فكرة الهرب في ذهن ابنتي. كلا، لا تحاولي الكذب. سواء عليّ أم على نفسك، بعد الآن.

لقد سبق ورأيت أمثلة عن هذا من قبل... الخيبة تجد مخرجاً لها. ماذا فعلت؟ هل ملأت رأسها بالكلام التافه عن العواطف الشاعرية التي تشعر بها وهي تهرب مع فيليب؟ وغير ذلك من الترهات التي يهضمها عقل فتاة مراهقة؟ أليس كذلك؟ تلك الأشياء التي يقرأ عنها الشخص في الكتب... وتقع فتاة حلوة بريئة تحت تأثير أجنبي وسيم، ليبقيا معاً يتحديان الآخرين؟»

كان صوته كالجليد يقطع لحمها. ولم تستطع سارة الحراك ولا الكلام ولا أي شيء آخر عدا الوقوف للاستماع إليه. وجعلها هذا، تبدو في عينيه أسوأ من ذي قبل. وقال: «ولا كلمة منك دفاعاً عن نفسك؟ لقد عرفت أن الحق كان معي البارحة وقد وجدت الآن البرهان على ذلك.»

أطلق سبيلها وقد كسا الازدراء وجهه وهو يتابع قوله: «لقد ملأت رأس ابنتي بتصوراتك الناتجة عن خيبة أملك، لأنك غير قادرة على إقامة علاقة ناضجة مع رجل.»

كان صوت الصفعة التي استقرت على وجهه، عالياً، بحيث رن صداها في أنحاء المقهى الذي ساده الصمت. لقد كان من الشدة بحيث أجفلت منه هي نفسها. وبقيت لحظة واقفة تتطلع إلى مكان الصفعة الذي تحول إلى لون أحمر. ثم استدارت على عقبيها هاربة.

أمسكها في أسفل الدرج وهو يقول: «كلا، إنك لن تفلتي من نتيجة فعلتك هذه.» كان يمسك كتفيها بخشونة وهو يديرها إليه. ولكن سارة لم تكن لتفكر بشيء من هذا. كان تفكيرها منحصراً في أنها، طوال تلك السنوات الماضية، قد

غرقت إلى الأسفل، وأنها لن تدع نفسها تغرق بعد ذلك أبداً ولكنها كانت مخطئة. ذلك أن كلماته القاسية المهينة قد فتحت جرحاً بقي كامناً في أعماقها زمناً طويلاً، طويلاً جداً، إلى حد أنه ابتدأ الآن بالشفاء.

قال: «إن الحقيقة مرة لأنها فُرضت عليك، أليس كذلك يا سارة؟ ولكن، حان الوقت لتواجهي حقيقتك. وهي أنك مجرد عانس محبطة تدس أفكارها في العقول البريئة.»

هزها بشدة إلى أن بدأ وجهها بالتضرج وأخذت تدمدم بكلمات متقطعة. ثم وجدت في نفسها القوة فجأة لدفعه عنها، وهي تقول: «كلا، إنك مخطىء يا سيد ماك أليستر. مخطىء.. مخطىء.. مخطىء...»

تصاعدت الهيستيريا من صوتها وهي تجد المخرج في ضحكة خشنة مرة حاولت جهدها أن تكتمها. وقالت: «ليس لديّ تصورات عاطفية يا سيد ماك أليستر. إنما لديّ كوابيس ليلية! أتريد أن تعرف لماذا؟»

كانت الآن ترتجف. إن في امكانها أن تشعر بها. ان تشعر بالتوتر يتملك جسدها. ان تشعر بالألم الذي سبّبه اتهامه القاسي لها.

تابعت: «هل تريد حقاً أن تعرف لماذا لم أضع مثل هذه الأفكار في عقل ابنتك؟ ولماذا لم أحاول وضع خطة لاجتذابك؟ لقد كنت...»

«عفواً سيدتي... سيدي.»

كان الاعتذار الرقيق من رجل يود الخروج من المقهى، قد نسف أفكارها مشتتاً إياها كزجاج مهشم. وحدقت سارة بذعر في جيمس ماك أليستر للحظة غير مصدقة ما كانت

تريد قوله، ثم استدارت راكضة.. لقد ركضت وركضت حتى أصابها الاعياء... ولكنها لم تستطع أن تهرب من كوابيس الماضي.

الفصل الرابع

توارت الشمس وراء سحابة، مرسلة ظلاً على صفحة النهر.

اقتلعت سارة حزمة من الحشائش أخذت تفركها بين أصابعها، وقد شعرت برطوبتها الباردة على جلدها الحار الجاف. والآن، مع تلاشي غضبها، شعرت بنفسها وكأن الحياة تغادرها لتتركها كصدفة فارغة. لقد حاولت جهدها، طوال سنوات، مراجعة مشاعرها وضبطها إلى أن انهارت الحواجز خلال الأربع وعشرين ساعة الأخيرة، لتعود مرة أخرى، تلك الفتاة الضعيفة الهشة بعد أن حطم جيمس ماك أليستر تلك الحواجز بأجمعها.

وجاءها صوته رقيقاً لا يكاد يعلو عن همس النسائم بين غصون الشجر: «هل أنت بخير؟» ولكنها مع ذلك قفزت مجفلة. ورمقته بنظرة من فوق كتفها وقد شعرت بالدم يتجمد في عروقها وهي تراه واقفاً خلفها بعينين زائغتين. ما الذي كان يفكر فيه، أو يشعر به؟ هل استطاع أن يخمن ما الذي كانت ستخبره به؟ وأحست بالغثيان لهذه الفكرة. فاستدارت بعيداً نحو النهر تحدق فيه، راجية أن يفهم من هذا أنها تريده أن يتركها ويذهب. ولكن بدا عليه أنه لا يعتزم ذلك. وجلس إلى جوارها على حشائش الربيع الرطبة. وقد لف ساعديه حول ركبتيه ومضى يحدق هو الآخر، في مياه النهر الفضية التي تتدفق دون نهاية في طريقها.

WWW.REWITY.COM

قال متأملاً: «إن هذا المنظر يذكرني بموطني. إن منزلي قرب النهر. فأنا لا أملّ أبداً من مراقبة المياه. إنني أجد في ذلك نوعاً من الشعور بالسلام النفسي.»

هل توقع منها حقاً أن تتبادل معه حديثاً مهذباً بعد كل ما جرى بينهما؟ يبدو ذلك. ولكن قبل أن يصدر عنها أي تجاوب تابع هو حديثه: «لقد صممت المنزل واقمته من أجل زوجتي «روث»... والدة كاترين. لقد عشقت النهر وكانت دوماً تطلب مني أن أتدبر أرضاً مناسبة هناك. ولكنك تعرفين كيف تحدث الأمور أحياناً.. لقد بقيت أتلكأ في هذا الأمر إذ كانت تجابهني احياناً، ضغوط تعيقني...» وتوقف عن الحديث لحظة وقد شحن الجوّ بنوع من الحزن هزّ مشاعر سارة. وتابع «وعندما انتهى بناء المنزل، لم تعش فيه سوى أشهر معدودات قبل أن تموت. إن ذلك، أحد الأخطاء القليلة التي ندمت عليها في حياتي، وهو أنني لم أبن المنزل حالما طلبت مني ذلك، كي تعيش فيه مدة أطول. ولكن هذا ما يحدث أحياناً. والندم لا يمكن أن يغير شيئاً.»

وتحول عند ذاك، ينظر إليها مباشرة لتشعر سارة بشيء من التوتر، في نظرته تلك، لم تشعر به من قبل. وتابع هو يقول: «لا يمكنك تغيير الماضي يا سارة. عليك أن تواجهيه وتتقبليه... مهما كان.»

وتوهج وجهها وهي تلقي بأنظارها بعيداً. إلى أي مدى وصل تخمينه عنها؟ فهي لم تستطع أن تتذكر تماماً كل ما قالته في تلك اللحظة، ولكنها، بالتأكيد، لم تكشف ذلك السر الذي بقي مكتوماً في نفسها زمناً طويلاً.

قالت: «ليس لديّ فكرة عما تتحدث عنه يا سيد ماك أليستر. ولهذا، أنصحك بأن توفر نصائحك لمن يحتاج إليها أكثر مني.»

فقال بصوت لا ينم عن شيء، وما زال يرمقها بنظرات هادئة: «قولي جيمس. ألا توافقينني على هذا؟ إنني أفضل أن تخاطبيني باسمي الأول.»

فقالت: «لماذا؟ أتظن أن هذا يصلح ما قلته لي من قبل؟ كل تلك الاتهامات الباطلة؟ أم لأنك تشعر بالأسف إذ أسأت إليّ؟» ونظرت إليه، وقد هاجت مشاعرها إلى درجة لم تستطع معها أن ترى شيئاً آخر خلف ذلك. واستطردت: «حسناً، إنني أشكرك كثيراً، يا سيد ماك أليستر. ولكن، أظن أنني سأتجاوز قبول ذلك الشرف كما أنني لا أريد منك اعتذاراً أو شفقة.»

حاولت أن تقف على قدميها وقد أصابها الهلع لفكرة أنها قد تنهار فجأة فتثير بذلك احتقاره، ولكنه قبض على ذراعها وجذبها لتسقط على ركبتيها أمامه. كان قريباً منها الآن، بحيث أمكنها رؤية الخطوط الدقيقة في زاويتي عينيه وظلاً أسود للحية، ابتدأ يكسو فكه. وأخبرتها غريزتها نتيجة لخبرتها في الماضي، أنها يجب أن تخاف من القرب منه بهذا الشكل. ولكن هذا لم يكن يعبّر عن شعورها أبداً وقد سبب لها هذا، صدمة.

قال: «لم أكن لأعني أياً من هذين يا سارة. فأنا لست من الحماقة بحيث أظن أنك بحاجة إليهما. كل ما أريده هو صفاء علاقتنا. ولكن من الواضح أن ذلك هو شيء لا ترغبين فيه.»

وهز رأسه لتسقط خصلة من شعره على جبينه، وشدت سارة على قبضتيها، وهي تعجب من الرغبة المفاجئة التي شعرت بها في أن ترد هذه الخصلة إلى الخلف، لتشعر بنعومتها الحريرية بعد تلك الغلظة من الرجل. وتابع هو قوله: «إنني لا أدري ماذا حدث لك في الماضي، يا سارة، ليوجهك في هذا السبيل. ولكن لا بد أن يكون شيئاً مأساوياً.»

تصلب جسدها حالاً وهي ترفع إليه أنظارها متنبهة وقالت: «لا أدري ما الذي تعنيه. لم يحدث لي شيء في الماضي. لا شيء...»

فابتسم برقة تتعارض مع النظرة الفاحصة إليها، وأخفضت هي أنظارها إلى يده التي ما زالت تقبض على ذراعها. وقال: «كلانا يعلم أن هذا كذب. فإن ما حدث لك قد تركك في خليط من المشاعر. إنك تضعين حولك هالة من البرود، ولكن دعي أي واحد يخدش سطح ذلك بشيء من التعمق، لتبرز حقيقة كونك مجرد طفلة هلوع لاتفتأ هاربة من كابوس ما. ولا عجب أن تجدي صعوبة في أن تعيشي حياة حقيقية، يا سارة. لقد أمضيت الوقت منطوية على نفسك معتزلة الحياة لخوفك من مواجهتها. وهذا هو السبب في أنك ملأت ذهن كاترين بكل تلك الحماقات.»

فنفضت ذراعها منه وهبت واقفة على قدميها، وهي تقول غاضبة مستغربة هذا الدافع الغامض إلى إيذائها بالاصرار على هذا الاعتقاد: «إنك مخطىء. مخطىء كلياً. ولكن من الواضح انني لن أستطيع إقناعك بهذا. فلماذا أكرر المحاولة؟ لقد حان الوقت لأن تتوقف كل هذه الأشياء

السخيفة بيننا. بعد أن اتضح بأننا لن نستطيع التعامل مع بعضنا البعض بأي قدر من الانسجام. وأظن أنه حان لنا أن ننفصل. وسأعود إلى المقهى وأتصل هاتفياً بالفندق لأطلب من السيدة لورنس أن توافيك إلى «ليموج». وهذا لن يسبب كثيراً من التأخير.»

فوقف بهدوء يشرف عليها بقامته وقد ساد وجهه لمحة من عدم رضى، سبق واعتادتها هي. وقال: «لا ضرورة لذلك. لقد رتبنا الأمور على أساس أن ترافقيني وهذا ما سيكون عليه الأمر، وليس في نيتي أن أغير من هذه الخطة.»

فأجفلت ثم قالت وقد توترت أعصابها: «إسمع يا سيد ماك أليستر...» وتوقفت عن الكلام وقد جمد الدم في عروقها، بعد ان وضع اصبعه على شفتيها يمنعها من الإدلاء بكلماتها الملتهبة وقال: «وفري على نفسك الكلام. إنك ستأتين معي للبحث عن كاترين حتى ولو اضطرني الأمر إلى ربطك وجرك معي. إن ما حدث من قبل لن يغير من الأمر شيئاً. إن ما يهمني فقط هو العثور على ابنتي، وليس إلغاء ارتباطاتك. لقد كنت مسؤولة عنها أثناء الرحلة، وما زلت مسؤولة عنها إلى حين عودتها إليّ سالمة. والآن، أظن أن الوقت قد حان لكي نتابع السير. فقد ضيعنا من الوقت ما فيه الكفاية حتى الآن وشكراً لك على كل حال.»

واستدار عائداً إلى الطريق، تاركاً سارة تحدق في أثره وقد بان الإجرام في عينيها. إنه أكثر الرجال الذين شاء سوء حظها أن تقابلهم، عجرفة وصفاقة إلى درجة غير محتملة. إنه لا يعترف بشيء أو بإنسان. إنه فقط يريد أن

تعود إليه ابنته لكي يعود إلى حياته الأولى دون أي عائق.

تبعته وقد تملكتها ثورة صامتة، ودخلت إلى السيارة تجلس في مقعدها بعد أن صفقت الباب خلفها بشدة. وانطلق هو بالسيارة بعد ان رمقها بنظرة قاسية، وهو يقول: «بدلاً من الجلوس والتفكير في تسوية الأمور معي يا سارة، أقترح أن تحاولي الرجوع بذاكرتك إلى أي شيء يمكن أن تكون كاترين قد قالته. مما قد يعطينا إشارة إلى المكان الذي قد تكون قصدته. إنني لست متشوقاً إلى البقاء في صحبتك كما أنت غير متشوقة إلى البقاء في صحبتي. ولهذا، كلما كان العثور عليها سريعاً، ذهب كل منا في طريقه.»

فاستدارت سارة إليه ومنحته ابتسامة ساخرة لتقول بصوت يقطر حقداً: «يا لهذا التفكير الرائع! صدقني يا سيد ماك أليستر. انني سأرهق ذهني في التفتيش عن أية معلومات قد تكون صدرت عنها، إذا كان في ذلك مايسرع بنا إلى هذه النهاية.»

توقعت منه أن يغضب، ولكنها أجفلت إذ رأته ينفجر ضاحكاً وهو يخرج بالسيارة إلى الطريق العام، ويقول: «حسناً حسناً يا سارة.. من أين جاء كل هذا؟»

فقالت: «ماذا؟ لا أفهم عما تتكلم.»

رفع حاجبه الأسود الكثيف وقد امتلأت عيناه بالسخرية وهو يرمقها بنظرة سريعة: «ماذا؟ أذكر أنه قبل أقل من أربع وعشرين ساعة، كان من عادة الآنسة مارشال المتحفظة المحتشمة، أن تنطق بأجوبتها بنبرة حادة خاطفة... يبدو أن السبب هو تغيير شكل شعرك وإسداله على كتفيك.»

تضرج وجهها لسخريته الباردة وأشاحت بوجهها وقد شعرت بالكراهية نحوه، خاصة وهي تشعر رغماً عنها أن ما قاله هو صحيح. إنها لم تكن لتتجاوب بهذا الشكل من قبل. كلا، ولم تكن لتتحدث بمثل هذه اللهجة مع أي من آباء تلميذاتها! كانت دوماً تبدو بمظهر عمليّ يسوده الكبرياء والبرود أثناء تعاملها مع الآباء، حتى مع بالغي الحدة والعصبية منهم. فماذا حدث بالنسبة إلى جيمس ماك أليستر ليجعلها تنسى مثالياتها وقيمها تلك؟ هل السبب هو تحديه الدائم لها وبراعته في إثارة حساسيتها بطرقه الخاطئة كلما تحدث إليها؟ أم أن هناك سبباً آخر لذلك؟ سبباً هي على غير استعداد للتنقيب عنه في أعماقها.

لقد عاشت طوال تلك السنين الطويلة الموحشة في عزلة خالية من المشاعر. ولكنها الآن، تشعر بنفسها غير قادرة على الاحتفاظ بهذه الحواجز أكثر من ذلك. وفجأة شعرت بالخوف.

كانت الرياح تهب، ليدخل الهواء البارد إلى السيارة باعثاً رعشة البرودة في أوصالها. ولكن سارة لم تتحرك لتقفل النافذة. بل أخذت تجيل النظر من خلالها في أسطح القرميد التي يغمرها ضوء القمر. وعاد بها التفكير إلى حين هطول المطر منذ ساعات وهما في الطريق مما أعاق قيادة السيارة. ولكن ذلك ما كان ليقلل من عزيمة جيمس ماك أليستر الذي بدا التصميم على وجهه وهو يتابع سيره على الطرق الفرعية دون أن يبدو عليه التعب. لقد أخذت سارة حين ذاك، تتساءل عما إذا كان ينوي السير طيلة الليل

ولكنها لم تسأله. كما أنها لم تطلب منه التوقف. إنها لن تطلب منه شيئاً كما أنها لن تعطيه شيئاً كذلك. وبدا لها أن تلك هي الطريقة المثالية للتصرف معه، أثناء هذه العلاقة المزعجة بينهما.

ولكنها أحست بالراحة على كل حال عندما عاد أخيراً إلى الطريق الرئيسي، ليتبع الاشارات إلى هذه المدينة الصغيرة ليخبرها باختصار أنهما سيمضيان الليلة فيها. لقد كان رأسها يكاد يتصدع من صوت محرك السيارة، عدا عن التوتر مما جعلها ترحب بهذه الفرصة للراحة من هذين الأمرين.

اغلقت النافذة وهي تتأوه بضعف، وجالت بأنظارها في أنحاء الغرفة متسائلة عما إذا كان الأمر يستحق أن تفرغ محتويات حقيبة ثيابها. كانت الساعة التاسعة تقريباً وهي تدرك تماماً أن جيمس ماك أليستر لا يحب التأخر في الصباح. فهو يتوقع منها أن تستيقظ مع الفجر وربما شكا بمرارة إذا هي تأخرت عدة دقائق. ولهذا من الأسهل عليها أن تبقي ثيابها في الحقيبة بدلاً من تعليقها في الخزانة التي تفوح منها رائحة النفتالين، ومن ثم تستعد للنوم.

وابتدأت تفك أزرار قميصها عندما قفزت بتوتر وهي تسمع صوت نقر على الباب، فأسرعت تعيد إقفال الأزرار وقد تضرجت وجنتاها وهي تستعيد ذكرى الليلة الماضية. لقد احتاطت هذه الليلة بإقفال بابها حالما دخلت الغرفة. ولكن، لم تكن ثمة طريقة لمنع ذكرياتها المضطربة من أن تعشش في رأسها. فذكرياتها تلك ستبقى تلازمها مدة طويلة.

ولم تدهش وهي ترى جيمس ماك أليستر يقف خارج الغرفة نافد الصبر عندما فتحت الباب. ولكن الأمر كان مزعجاً بشكل غريب. لقد حرك منظره مشاعرها بشكل وحشي، إذ جعل الدم يجري في عروقها بشكل أثار اضطرابها العميق. لماذا يزعجها هذا الرجل بهذا الشكل؟ لو أنها تعرف جواب هذا. إذن، لربما عرفت كيف تتصرف معه، ولما أحست بالضيق إلى هذا الحد الذي بدا في لهجتها الحادة، وهي تسأله: «نعم، هل تريد مني شيئاً؟»

فرفع حاجبه وهو يقول: «الأفضل أن تضعي معطفك. فما زال المطر يهطل خارجاً.»

فقالت: «معطفي؟ ولماذا؟»

فأجاب وهو يجتاز الباب إلى الداخل: «لأننا نريد ان نتناول شيئاً من الطعام.»

وجال بأنظاره في أنحاء الغرفة ذات الأثاث الثقيل القديم الطراز. واستندت سارة إلى الجدار متجنبة لمسه حين مر بجانبها، وقد شعرت بدمها يجري حاراً في عروقها عندما ألقى عليها نظرة ذات معنى وما لبث أن قال بصوت ناعم مليء بالسخرية: «لا تقلقي، فأنا لا أنوي أن أكرر غلطة الليلة الماضية.» ورفع يده إلى وجهه لافتاً انتباهها إلى أثر الخدش على وجنته النحيلة، الذي كان قد ابتدأ بالالتئام وتابع: «لقد كنت أبحث فقط عن معطفك لكي لا نضيع الوقت دون ضرورة.» وكان من الصعب عليها التزام الهدوء أمام مثل هذا الاستفزاز، ولكنها حاولت ذلك وهي تقول: «شكراً يا سيد ماك أليستر فأنا لست في حاجة إلى معطف، لأنني لا أريد الخروج معك لتناول الطعام. كما أنني لست جائعة.»

فقال: «أخشى أنك لم تفهمي قصدي يا سارة. فهذه ليست دعوة، بل أمر مني. والآن، ارتدي معطفك وكفى تضييعاً للوقت في الجدل.»

فقالت بحدة: «أمر منك؟ ومن تظن نفسك؟ هل تتصور حقاً أن في إمكانك أن تأمرني بأن آكل وكأنني طفلة؟» واشتدت الثورة في نبرات صوتها وهي تستطرد: «دعني أكرر ما قلت يا سيد ماك أليستر: «إنني لا أنوي الخروج لتناول الطعام. والآن، إذا كان هذا مفهوماً، هل تتفضل بالخروج؟»

فتحت الباب على مصراعيه وقد توهجت عيناها بالغضب ولكنه بادلها نظراتها بهدوء دون ان يتحرك، وهو يقول: «لقد أوضحت الأمور جيداً يا سارة، ولكن رأيك لا يهمني كثيراً. كل ما يهمني هو ان اعثر على كاترين، ولهذا أنا بحاجة لمقابلة أي شخص قد يكون رآها.»

وأخرج من جيبه الخارطة وناولها إياها وقد بدت في عينيه نظرة كالصوان.

وقال: «أنظري جيداً إلى ما كتب على الهامش، الكتابة غير واضحة ولكن يبدو أنها تتضمن إسم هذا المكان. لا بد أنهما انطلقا في الطريق الذي صممنا عليه ثم، وهذا محتمل جداً، أن هذا المكان هو ما اعتزما المبيت فيه. ومن الممكن أن يتذكر شخص ما رؤيتهما. والمقهى المحلي هو أكثر الأمكنة احتمالاً لذلك. ولا بد أنهما تناولا الطعام في مكان ما. ولهذا أنوى أن أسأل في ما حولنا، وأنت يا عزيزتي سارة ستأتين معي. برغم أنك بصراحة لم تكوني حتى الآن سوى عائق. ولكن، يمكنك أن تسدي ثغرة بالنسبة إلى معرفتك باللغة الفرنسية.» ونظر في ساعته وقد تصلبت ملامحه واستطرد

«والآن، إذا لم يثقل عليك كلامي، هل لك أن ترتدي معطفك لكي نبدأ سيرنا قبل ان يذهب كل شخص إلى سريره؟»

لماذا هو دوماً يشعرها بأنها حمقاء تماماً؟ وتوهج وجهها وهي تتناول معطفها من عن المشجب خلف الباب، ثم ترتديه لتسير أمامه دون كلمة أخرى، مع أن كلمات كثيرة مرة كانت تحوم في رأسها. وكانت تلك هي المشكلة بالطبع... بدلاً من مناقشتها مقدماً كما تفعل عادة، كانت تميل إلى أن تقفز دون إبطاء عندما يتكلم جيمس ماك أليستر، مبدياً وجهة نظره بكل كلمة وحركة بشكل هجوم شخصي. ومن الطبيعي أن يكون متلهفاً إلى البدء بالسؤال حالاً عن مكان كاترين. فقد كان هناك دوماً احتمال في إمكانية وجودها فيه.

كان المطر ما يزال ينهمر في الشارع الهادىء عندما خرجا من نزل «الأوبرج». ورفعت سارة ياقة معطفها إلى ذقنها، ثم قفزت بعصبية عندما أمسك جيمس ماك أليستر بذراعها يقودها نحو جانب الطريق.

وقال: «لقد فهمت من موظفة الإستقبال أن المقهى في مكان ما في نهاية الشارع. فلنجرب السؤال.»

وأومأت سارة برأسها وهي تحاول عبثاً أن تخلص ذراعها من قبضته. وقال: «هل تشعرين بمثل هذه العصبية دوماً عندما يلمسك أحد؟»

وألقى عليها نظرة، بينما كسا وجهه الظل عندما توارى القمر وراء سحابة كثيفة. وتابع «أم لعل ذلك معي أنا فقط. إذ تبدو ردة فعلك تجاه أقل لمسة مني وكأنك تعتبرينها نوعاً من التعدي؟»

فقالت: «لا تكن سخيفاً. هل لأنني لم أتعود على أن يقودني رجل، يعتبر ذلك عصبية مني؟»

فقال: «يقودك رجل؟ لقد كنت اقدم إليك يد المساعدة بكل أدب، ذلك أن الأرض غير مستوية هنا.» ولم تخطىء هي نبرة المزاح في صوته العميق. وانتزعت ذراعها من يده وهي تقول: «حسناً إنني لا أريد مساعدتك، وأشكرك كثيراً. فإنني قادرة تماماً على السير دون معونة من أحد يا سيد ماك أليستر. لهذا، وفر معونتك (المؤدبة) لمن يعرف قيمتها.»

هل هو القدر الذي وضع حفرة موحلة في منتصف الطريق، ليجعلها تعمى عن رؤيتها وهي تتقدمه في السير مائلة برأسها في كبرياء؟ لم يكن لديها أية فكرة عن ذلك، سوى أنها كانت تسير للحظة، وفي اللحظة التالية كانت غارقة حتى كاحليها في الماء الموحل المثلج. وبقيت لحظة متجمدة مكانها. لتنشل نفسها بسرعة بعد ذلك من الوحل مسرورة، إذ وارى الظلام خيبتها عن عيني جيمس ماك أليستر وهو يقف يرقبها صامتاً.

أخرجت من جيب معطفها منديلاً ورقياً ثم انحنت تمسح البقع القذرة عن كاحليها. وهي تتمنى لو كانت تبعد عن هذا المكان مليون ميل. لماذا لم يقل هو شيئاً؟ أي شيء حتى ولو تعييراً لها بقوله: «لقد قلت لك ذلك.» مثلاً، وذلك بدلاً من وقوفه يرقبها بهذا الشكل؟

رفعت أنظارها إليه، لتشعر بطبعها يكاد ينفجر وهي تراه يضحك بصمت على عدم جدوى محاولتها تنظيف نفسها. فألقت بالمنديل جانباً ثم استدارت عائدة من حيث أتت، مستخفة بمحاولته إعادتها.

قال وقد حلّت مكان ضحكه برودة جعلت الدم يتجمد في عروقها: «إلى أين تظنين نفسك ذاهبة؟»

فأجابت: «إنني عائدة إلى نزل «الأوبرج» طبعاً، إذ لا يمكنني الذهاب إلى أي مكان بهذه الحالة.»

هز رأسه، ودفع الهواء خصل الشعر عن جبينه، ليبدو وجهه في ضوء القمر قوياً عابساً.

وقال: «تعالي إننا لن نضيع الوقت أكثر مما فعلنا هذه الليلة.»

وجذبها من ذراعها وهو يسير بها قدماً، ولكن سارة قاومته بقوة أدهشتها هي نفسها. ونظرت إليه ساخطة وهي تقول: «ولكن من تظن نفسك لكي تأمرني بهذا الشكل؟ إنني لن أذهب معك إلى أي مكان يا جيمس ماك أليستر إلى أن أعود نظيفة جافة.»

فأمسكها بذراعيها وانحنى ينظر في وجهها قائلاً: «لا يهمني لو كنت مغطاة بالوحل من رأسك حتى اخمص قدميك، أيتها السيدة. ولا يمكنك أن تذهبي إلى أي مكان قبل أن ننجز ما نحن بسبيله. لقد أدركت منذ البداية أن ليس لديك أي اهتمام بمصير كاترين، ما عدا أن اختفاءها أدخل الفوضى إلى برنامجك للرحلة. ولكنني مهتم جداً وأحتاجك كمترجمة. ولهذا ستأتين معي سواء شئت أم أبيت. فدعينا نسلك لذلك السبيل السهل بدلاً من السبيل الصعب. ما دامت النتيجة هي واحدة فاختاري يا سارة ولكن بسرعة، لأن صبري قرب من أن ينفد.»

لماذا أصرت على الجدال في الوقت الذي كانت تعلم فيه أنه يعني كل كلمة قالها؟ لماذا لم تمتثل للأمر بهدوء

محتفظة بكرامتها؟ لقد كان هذا، بطبيعة الحال، ما يجب عليها عمله، ولكن...

وقالت: «ماذا تعني بقولك (السبيل السهل والسبيل الصعب؟) هل تهددني؟ دعني أخبرك هنا و... أوه!»

واخترقت صرختها الحادة ظلمة الليل، وهو ينحني ثم يرفعها على كتفه ككيس فحم، ثم يستمر في سيره. وبقيت سارة ترتجف من الصدمة وهي لا تصدق ما حدث. ثم أخذت تضربه بقبضتها على كتفيه وهي تصرخ به: «أنزلني... كيف تجرأ.. إنك... إنك...؟» لم تجد الكلمات التي تتناسب مع مثل هذا الحدث. وثارت ثائرتها لعجزها عن التعبير عما تشعر به. فأخذت ترفسه بقدميها وقد شعرت بالسرور، وهي تسمعه يشتم بعنف حين رفسته بقدمها على معدته. فوقف وأنزلها جانباً وقد ثارت ثائرته وهو يقول: «إفعلي ذلك مرة أخرى لكي أنسى أنني سيد مهذب.»

فقالت: «هيه! إنك لا تعرف صفات الرجل المهذب الأولية. إن الرجل المهذب لا يرغم سيدة على الذهاب معه رغماً عن إرادتها.»

فابتسم ببرودة. وقد اشتعلت عيناه كلهب أسود وهو يبادلها النظر، قائلاً: «ربما أنا لست كذلك، ولكنني أنا أيضاً لا أصنفك كسيدة مهذبة يا سارة.» وأمسك بيدها يدعك بأصابعها أثر الخدش في وجنته، وهو يتابع: «ليس ثمة سيدة مهذبة تفعل هذا. وأظن أن هذا يجعلنا متعادلين.»

وارتجفت سارة وهي تتنفس بعمق. كل ما فعلته هو أنها لمسته... لامست أصابعها وجهه النحيل.. فلماذا جعلها هذا تشعر بمثل هذا الاحساس الغريب؟...

وأغمضت عينيها خوفاً من أن يقرأ فيهما أفكارها. وقالت أخيراً: «دعني أذهب يا جيمس أرجوك.»

لقد خاطبته باسمه الأول دون وعي منها، وهي تحاول تمالك مشاعرها بعد ان شعرت بأن اعضاءها قد ارتخت تماماً. ولم تدرك ما فعلت إلا بعد أن قال: «ربما، على كل حال قد نجحنا نوعاً ما. إنني لم أتعود معاملة النساء بمثل هذه الغلظة يا سارة، ولكن يبدو أن هذه المعاملة قد نجحت في القضاء على تشددك.»

ابتسم بهدوء وهو يتطلع إلى وجهها المتسائل.

وتابع «لقد خاطبتني باسمي جيمس. وهكذا، ربما استطعت أن اخترق تلك الدرع الحديدية التي تقين بها نفسك.»

وتراجع بضع خطوات إلى الخلف. ولكن سارة أحست بأنه سيعيدها إلى مكانها إذا هي حاولت مرة اخرى العودة. ولهذا، ثبتت في مكانها لكي تتجنب أي إشكال مهين آخر معه، كما حدثت نفسها. وهذا ليس له أية علاقة بذلك الشعور الغريب بالضعف الذي تملك أعضاءها. وهزت كتفيها متظاهرة بعدم الاهتمام، وهي تقول: «السيد ماك أليستر... جيمس... ما المهم في هذا؟ والآن، هل نتابع سيرنا إذا كنت ما زلت مصراً على زيارة ذلك المقهى؟ لقد تأخرنا.»

تنحى جانباً داعياً إياها بسخرية إلى التقدم أمامه وهو يقول: «تقدميني. إنني مسرور إذ استطعنا التفاهم أخيراً يا سارة، فهذا يسهل علينا الأمور بدل تضييع الوقت بالجدل.»

ولكنها ارتابت في قوله هذا، إذ لم يكن ثمة طريقة لجعل علاقتهما تسير بسهولة، وذلك من وجهة نظرها. فقد سبق

ورأتها معقدة إلى حد لا يصدق. وتتلاطم تحت سطحها المشاعر العنيفة. كان الأمر في الواقع مختلفاً عن كل شيء سبق وعرفته من قبل.

سارا بصمت إلى أن وصلا إلى المقهى الذي كان دهانه المتساقط واضحاً حتى في الظلام. وبدا لهما مقفراً، ولكن، ما أن دفع جيمس الباب حتى دهشت سارة وهي تراه غاصاً بالزبائن. وترددت برهة وهي تشعر بعدم الارتياح للطريقة التي توقفت فيها الأحاديث ساعة دخولهما. ولكن أصابع جيمس اشتدت حول مرفقها تطمئنها. فرمقته بنظرة، لتراه يجول بأنظاره متفحصاً في أنحاء القاعة التي يملأ جوها الدخان. وبدا لها ضخم الجسم فظاً عدائي المظهر في وقفته تلك. وفجأة، تملكها شعور بالأمان لم تشعر به من قبل، مهما كان مقدار اختلافهما، فإن جيمس سيحميها. لقد أحدث إدراكها هذا أول شرخ في جدار الخوف الذي أحاطت نفسها به طيلة السنين الماضية.

وأشار إلى طاولة صغيرة في زاوية القاعة، قائلاً: «فلنجلس هناك.» وقادها إليها وهو ما زال قابضاً على ذراعها ليجلس على كرسي قبالتها. ونظر إلى ما حوله مقابلاً نظرات بعض من كان يرمقه بها من الجالسين الذين كانوا يرقبونهما. ولأمر ما، لم تدهش سارة وهي تراهم يبعدون عنها أنظارهم. لقد كان ثمة ما يبعث على الخوف في الطريقة التي جلس فيها جيمس بهدوء تحيط به هالة من القوة والثقة بالنفس. وكانت متأكدة من أن الرجال الذين قد يفكرون بتحديه، هم قليلو العدد.

وتقدم رجل إلى طاولتهما مستفهماً بجفاء: «نعم يا

سيدي؟» وطلب منه جيمس إحضار كأسين من الشراب دون أن يهتم بسؤال سارة عما تطلبه. وانتظر ابتعاد الرجل ثم نظر إليها، وضاقت عيناه وهو يرى إشارة خفيفة في زاوية فمها تعني عدم الرضا. وقال: «إنني أعلم من دون أن تقولي... انك لا تحبين هذا الشراب.» وأخرج من جيبه علبة سجائر أشعل منها واحدة قبل ان يتابع قوله: «ولا شك أنك تكرهين رائحة السجائر.»

فهزت كتفيها وقد كرهت حقيقة أن في إمكانه قراءة مشاعرها ببساطة. وقالت: «إذا كنت تريد أن تدمر صحتك بالتدخين فهذا شأنك. أما بالنسبة إلى الشراب، حسناً، يبدو أنني سأستمتع بكأس منه الآن.»

رفع حاجبه القاتم وأخذ نفساً من سيجارته ثم نفث الدخان في السقف، وقال: «إنك تدهشينني. لم أكن أظن أنك تسمحين لأي نوع من الشراب بأن يلمس شفتيك. هل توقعت رئيستك أن من الممكن أن تستمتع الآنسة مارشال البالغة الاستقامة بمذاق الشراب؟»

فتصاعد الدم إلى وجهها لدى استفزازه هذا ونظرت بعيداً. لماذا يستمر في هذا؟ ما الذي يسره في أن يذكرها على الدوام بوضعها؟ وقالت: «إنني موظفة حرة لا يهم أحداً ما أفعله في خارج ساعات الدوام يا سيد...» وتوقفت حين لاحت على شفتيه ابتسامة ذات معنى. وازداد احمرار وجهها. ولكنها اكملت كلامها قائلة «جيمس.»

قال: «أحقاً؟ إن الأمر يبدو كصدمة لي في الواقع. ذلك أنني كنت أظن أن ساعات الدوام لا تنتهي. ان حياتك بأسرها تدور حول وظيفتك دون أي شيء آخر. المهم هو الغوص

في الأعماق يا سارة، ولكن هذا ليس سبب وجودنا هنا على كل حال. عندما يأتي الرجل بالشراب أريد منك أن تسأليه إذا كان يتذكر رؤية كاترين هنا ومتى كان ذلك.» وفتش في جيوبه ثم أخرج صورة تفرس فيها لحظة وقد كسا الألم ملامحه ثم ناولها إياها.

أخذت سارة الصورة الصغيرة وتفرست فيها كما فعل هو، وقد عجبت لكونها لم تدرك من قبل مقدار شبهها لأبيها. الذقن، الفم. وارتفعت عيناها إلى فم جيمس تتأمل شفتيه الجميلتين الخاليتين من الرقة التي تتميز بها شفتا كاترين. كانت شفتاه قاسيتين ثابتتين.

صدمت لاستغراقها في مثل هذه الأفكار، وارتفعت نظراتها رغماً عنها إلى عينيه الواسعتين الباردتين اللتين في إمكانهما كشف ما تنم عنه عيناها. إنها لم تفكر مطلقاً في فم رجل من قبل. وكانت صدمتها أشد إذ رأت نفسها تفكر بهذا بالنسبة إلى جيمس ماك أليستر من بين كل الناس.

ومد يده يلامس يدها على الطاولة سائلاً: «ماذا جرى؟» وأخرجتها برودة أصابعه على يدها الدافئة من أفكارها الجنونية. وارتجفت وهي تسحب يدها من تحت يده لتضعها في حضنها. وهي تقول: «لا شيء.» فقال لها بفضول أخافها: «هل أنت متأكدة؟»

كم سيسخر منها لو أنه اكتشف ما يجول في أفكارها. وتابعت: «لا شيء مهماً كما قلت لك...» وشعرت بالارتياح وهي ترى الرجل يعود بالشراب. وسرت لتغيير الموضوع. وقبل أن يستدير الرجل راجعاً، استوقفته

تريه الصورة سائلة إياه إذا كان قد سبق له رؤية صاحبتها.

فألقى عليها نظرة، ثم وضعها على الطاولة وهو يهز رأسه نفياً يستدير ليذهب. ولكن شيئاً جعل سارة تصر على تكرار السؤال. وقد بدا صوتها حاداً متسلطاً، ليدلي هو بجواب مختصر وهو يسرع مبتعداً.

قال جيمس بصبر نافد: «حسناً، هل أفهم من هذا أنه لم يرها؟» وأمسك بالصورة وهو ينظر إلى سارة عابساً. وتنفست وهي ترتجف محاولة استعادة الكلمات التي قالها ذلك الرجل لئلا تكون مخطئة في الاستنتاج، وإن كانت واثقة بخلاف ذلك. وعاد جيمس يقول: «حسناً قولي أي شيء. لماذا تتلكأين؟» وسكت منتظراً جوابها وأسرعت هي تقول: «لقد قال...» وتوقفت وهي تزدرد ريقها مقاومة الخوف الذي انتابها فجأة، لتقول أخيراً: «لقد قال انه لم يرهما.»

وبانت في عينيه دلائل الخيبة ليغمضهما وهو يقول: «لقد فهمت. إن الأمر كان يستحق المحاولة...» تناول كأسه وأخذ منه جرعة، ثم أعاده إلى الطاولة لتمسكه هي من ذراعه بشدة قائلة: «كلا... إنك لم تفهم يا جيمس. لقد قال إنه لم (يرهما) ولكنني لم أوجه إليه سؤالي بهذا المعنى. لقد سألته ما إذا كان يتذكر رؤيته لكاترين ولم أذكر ما إذا كانت برفقة رجل.»

فاشتدت قبضته حتى كادت تحطم الكأس الممسكة بها. وأخذ يحدق فيها بنظرات فولاذية، قائلاً: «هل أنت متأكدة يا سارة؟ متأكدة تماماً؟ لعلك مخطئة. ربما لم تفهمي قوله؟»

فقالت وهي تطلق ضحكة قصيرة مرة: «كلا. إنني أعلم

أن فكرتك عني غير حسنة. ولكن الشيء الذي أحسنه جيداً هو ما أقوم به لأجل معيشتي. فأنا معلمة اللغة الفرنسية يا جيمس، وأتكلمها بشكل جيد جداً. إنني لم أخطىء. لقد كان ما قاله الآن واضحاً جداً في صدد الموضوع الذي نحن بسبيله.»

فقال وهو يجرع ما بقي في كأسه: «إن ما نحن بسبيله هو أن نرى ما يدور هنا. وهذا ما سنفعله.» ووقف بينما أزاحت سارة كرسيها وهي تشعر برعشة الخوف، إذ رأت ما ارتسم على ملامحه وهو يضع شيئاً من النقود على الطاولة ثم يلتقط الصورة ويعيدها إلى جيبه.

وتبعته إلى خارج المقهى تكاد تركض لتلحق به وهو يسرع في الشارع. وأمسكته من يده لاهثة، وهي تقول: «أرجوك يا جيمس إنتظر. أخبرني عما ستفعله.»

فاستدار ينظر إليها. كانت عيناه خاليتين الآن من أية سخرية، أو تلك الضحكة الثائرة التي اعتادت رؤيتها منه. كل ما رأته في تينك العينين السوداوين هو الغضب الذي بدا وكأنه موجه إليها. وقال: «إنني سأعيدك إلى نزل «الأوبرج» وبعد ذلك، أرى ماذا حدث هنا.»

فقالت: «دعني أبقى معك يا جيمس. كن عاقلاً، فإنك في حاجة إلى من يساعدك في توجيه الأسئلة.»

فهز رأسه وقد كسا ملامحه ازدراء طعنها في قلبها. وقال: «لا أريد مساعدتك بعد الآن. سأحاول التفاهم معهم. وإنني متأكد من ذلك.»

فقالت: «ولكن ماذا سأفعل أنا؟»

فضحك. لم يكن في ضحكه ذاك أي مظهر للمرح. كان

فيه صدى لشيء جعل شعرها يقف وقال: «إدعي يا سارة. إدعي فقط.» وفجأة، تحرك يواجهها ممسكاً بذقنها ووجهها إليه ليمكنه التحديق في عينيها. وأمسكت هي أنفاسها وهي ترى الغضب في عينيه وهو يقول: «إدعي أن لا يكون ثمة شيء قد حدث لابنتي. وشكراً لك.»

وتركها فجأة فاهتزت في مكانها ليستدير راجعاً إلى الطريق. وتبعته هي صامتة وقد شعرت بالدموع تحرق جفنيها. إنه يكرهها. وليس في ما قالته أو فعلته ما جعله يغير من اعتقاده. إنه ما زال يعتقد أنها وراء اختفاء كاترين. والآن كل ما في إمكانها عمله هو كما قال لها... أن تدعو لعودة كاترين سالمة. ولكن إذا هي أضافت دعوة منها أن يلهم جيمس قبول الحقيقة يوماً ما ويسامحها.. عند ذاك من هو الذي سيعرف ذلك سواها؟

الفصل الخامس

لم تستطع سارة أن تشعر بالراحة. لقد مضى أكثر من ساعة على ترك جيمس لها عند باب النزل، ليقفل أدراجه عائداً إلى المقهى. وقد أمضت سارة ذلك الوقت متمشية في أرض غرفتها، شاعرة بالقلق لما عساه قد حدث. لو أنه فقط سمح لها بالعودة معه عندما وضع خطته... ولكنه لم يُردها بالطبع. لقد أخبرها بجلاء عن عدم حاجته إليها بعد الآن. ما زالت تشعر بالألم وهي تتذكر لهجته الباردة الحاسمة وهو يقول ذلك. لماذا تشعر هي فجأة، بأهمية ما قاله عنها؟ ولم تشأ أن تتمعن في معنى شعورها هذا.

ضغطت وجهها على الزجاج البارد متفحصة الشارع كما سبق وفعلت مئات المرات. وما لبثت أن تمتمت بارتياح عندما لاح لها فجأة، شبح طويل معروف منها. واستدارت راكضة نحو الباب، لتسرع في الممر الطويل ثم تقف عند أعلى الدرج. وبان على وجهها الحيرة وهي تراه يصعد نحوها. وبدت حركاته غريبة. إن جسده الذي تعرفه ليناً مرناً، كان متصلباً. ولكنها لم تر سبب ذلك إلا بعد أن وصل إلى أعلى الدرج ووقف تحت المصباح.

قالت بلهفة: «جيمس! ماذا حدث؟ لماذا هذا الجرح في جبهتك؟»

تقدمت هي نحوه بشكل عفوي ورفعت يدها إلى رضة داكنة في صدغه الأيسر، ولكنه دفعها بيده، وهو يتجاوزها

دون أن ينبس بكلمة. ووقفت هي ترقبه يبتعد، وقد ساورها الألم الذي ما لبث أن استحال إلى تصميم. ربما لم يردها أن تعلم ما الذي حدث. وربما سيرفض اخبارها عن ذلك. ولكن هذا لا يعني أنها يجب أن لا تحاول معرفة ذلك. ولن تسمح له بأن يمرّ بها بهذا الشكل دون كلمة تقال.

أسرعت خلفه لتمسك بالباب وهو يهم بإغلاقه، ثم تبعته إلى داخل غرفته. وألقى هو بمعطفه على السرير ثم استدار ينظر إليها. كان وجهه يبدو عدائياً وهو يقول: «لا أذكر أنني دعوتك إلى الدخول. فإذا كان لديك ما تقولينه فهيا، افصحي، إذ ليس عندي مزاج لمواجهة أية هستيريا الآن.»

قالت: «ليس ثمة شيء من هذا، إنني أريد أن أعرف فقط ماذا جرى.» وأشارت بيدها إلى وجهه حيث كان الدم ما يزال يسيل على وجنته. وتابعت: «ولا تجرب ان تقول لي انك اصطدمت بجدار، يا جيمس ماك أليستر! إذ أن من الواضح أنك دخلت في شجار.»

لوى شفتيه ساخراً وهو يفك أزرار قميصه. وقال: «يبدو عليك فجأة أنك عليمة جداً، يا آنسة مارشال، كم من ضحايا الشجار سبق ورأيت لكي تصبحي بمثل هذه الخبرة؟»

قالت: «لست في حاجة إلى أن أكون خبيرة لكي أميز أثر الضربة. أهذا هو ما فعلت؟ عدت إلى المقهى لكي تبدأ الشجار؟ كيف أمكنك أن تكون بهذا الغباء؟ ماذا رجوت من وراء هذا العمل؟»

كان في هذه الأثناء قد أتم خلع قميصه الممزق ورماه جانباً، وهو يقول: «إنني لم أبدأ بأي شيء، وذلك لمعلوماتك الخاصة. كل ما فعلته هو أنني أخرجت

الصورة ثم أريتها لبعض الرجال. وعلى كل حال، لقد اعترض واحد أو اثنان على أسئلتي وابتدأوا الشجار... ولكنني أنهيت ذلك تماماً.»

قالت: «وما هو المفروض أن يسمى هذا؟ عمل جيد؟ أخشى أنك قصدت الشخص الخطأ في سبيل تحقيق عمل باهر يرضي كبرياء رجولتك يا جيمس ماك أليستر. كان عملك أحمق غير مسؤول إذ تعود إلى هناك بهذا الشكل. وماذا استفدت؟» وهزت رأسها تبعد عن ذهنها صورة جعلتها تشعر بالغثيان. صورة جيمس وقد أصابه شر. وتابعت قولها: «لا شيء... لا شيء مطلقاً.»

ابتسم بعتب ومشى نحوها ببطء قائلاً: «من قال إنني لم أستفد شيئاً؟ إنني لم أقل هذا. والآن، إذا شئت أن تجعلي من نفسك مفيدة ولو مرة واحدة، حاولي أن تفعلي شيئاً لهذا الجرح. إنني متأكد أن الاسعافات الأولية هي جزء من دراستك كممرضة. دعينا نرى مقدار نجاحك في عملك.»

مر بقربها ولأول مرة تنتبه إلى صدره العاري، وتملكها الحرج. لقد كانت مسترسلة في غضبها فلم تلحظه وهو يخلع قميصه الممزق. وضاقت الغرفة حولها. ولم تستطع البقاء معه وهو بهذا الشكل، ولم تحتمل الاقتراب منه إلى هذا الحد. وابتعدت عنه وقد اتسعت عيناها ذعراً، وهي تسمعه يتأوه بنفاد صبر، وهو يقول بخشونة: «لا تزعجي نفسك... إنني أكره أن أجرح إحساسك مرة أخرى. لماذا لا تصنعين جميلاً لنا نحن الاثنين، يا سارة وتتركينني؟ ربما عند ذاك، يمكنني أن أصنع شيئاً لهذا الجرح ثم أنام قليلاً.»

فتح الصنبور فوق الحوض، ثم أخذ المنشفة فبللها ثم أخذ يربت على الجرح برفق. ووقفت سارة تراقبه بصمت وقد دارت في أعماقها معركة مؤلمة. جزء من عقلها طلب منها مغادرة الغرفة حالاً، بينما طلب الجزء الآخر منها البقاء وتقديم يد العون له. فماذا عليها أن تختار؟ وإلى متى تسمح لما حدث لها في الماضي، بأن يقود حركاتها؟

أخذت نفساً عميقاً، ثم مشت إليه بصمت. أخذت المنشفة من يده وبللتها في الماء البارد، آملة أن لا يعود إلى تعليقه الساخر. ولكنه لم يقل شيئاً وهو يبتعد ليجلس على كرسي إلى جانب سريره الضيق. وشعرت به يرقبها بينما كانت الحرارة تسري في أوصالها. ولكنها تابعت عملها بغسل المنشفة حتى نظفت تماماً، ثم مشت إليه تضغط الجرح برقة وثبات، وهي تحاول أن تمنع يديها من الارتجاف وفضح احساسها العصبي الناتج عن الشعور بقربه.

قال بصوت بدا خشناً لمسامعها: «كيف يبدو الجرح؟» وأجفلت دون وعي منها. وأطلق هو شتيمة بذيئة وهو يمسك بمعصمها النحيل، قائلاً: «لماذا تفعلين ذلك؟ إنني لن أؤذيك... ويجب أن تعلمي هذا، فلماذا تتواثبين هكذا كحيوان هلوع؟» وأبعد يدها عن وجهه مائلاً برأسه لكي يطلع في عينيها مباشرة وهو يتابع قوله: «ما أمرك، يا سارة؟ لماذا تخافين الاقتراب مني؟ هل هذا بالنسبة إليّ فقط أم بالنسبة إلى الرجال عامة؟»

لقد اقترب من معرفة الحقيقة بحيث أبعدت يدها عنه وقد خشيت أن يفهم كل شيء. ولن يكون في إمكانها احتمال ذلك.

لن يكون في امكانها الوقوف لرؤية الادراك في عينيه عندما يكتشف سرّها. وقالت: «لا تكن سخيفاً. إنني لا أخاف منك أو من أي امرىء آخر. إنك أفزعتني فقط وهذا كل شيء. والآن، هل ستدعني أنهي معالجة ذلك الجرح، أم أننا سنضيع بقية الليلة في الحديث عن شؤوني الخاصة؟» وابتسمت بمرارة وهي تتابع: «لقد سبق واستعملت أنت هذه الجملة، إذا لم أكن مخطئة، أليس كذلك؟»

استند جيمس بظهره إلى الخلف وهو يحدق بها بهدوء، ثم قال: «كان ذلك حقاً، وكنت أنا على صواب. ذلك أن لديك نفوراً عميقاً من أن يلمسك أحد. وليس المهم هو عدد المرات التي قلت لي فيها إنني أفزعتك أو ما إذا كنت صدقتك أم لا.»

قالت: «حسناً، إنها مشكلتك أنت. ولا أستطيع التدخل في ما تفكر فيه.» وانحنت إلى الأمام تعيد تنظيف الجرح لكي تخرج من الغرفة بأسرع ما تستطيع. وجعلتها السرعة تفقد توازنها تدريجياً. ورفعت يدها بشكل عفوي لتتمالك نفسها، فتلاقت عيناها بعينيه عندما لامست أصابعها بخفة جلده الدافىء، وشعرت بضربات قلبه، وتجمدت يداها.

رفع هو يده يضعها على يدها ضاغطاً عليها بخفة ثم عاد ينظر في عينيها المتسعتين بذعر، وهو يقول: «ما هو شعورك يا سارة عندما تلمسين شخصاً آخر هكذا؟ هل هذا يخيفك؟ هل يجعلك تهربين لتخفي نفسك مرة أخرى؟ أم أنه يجعلك تودين اكتشافاً أبعد من ذلك؟» وأبعد يدها عنه بخفة ليعود فيمر بها على صدره وهو ينظر في عينيها.

توقفت أنفاسها وقد طغت عليها المشاعر بشكل لم تعرفه

من قبل. وقال لها: «أرأيت يا سارة؟ إنني مجرد لحم ودم مثلك تماماً.»

هزت رأسها لتتساقط خصلات شعرها المربوط إلى الخلف، على وجنتيها المتوهجتين وهي تقول: «كلا.. ليس مثلي.. هذا شيء مختلف.»

كان صوتها تمتمة خفيضة خشنة، وابتسم جيمس بتفهم واضح. وقال: «إنهما نفس الشيء إنما بشكل مختلف. إنه الفرق بين الرجل والمرأة طبعاً. ومن المؤسف أنك لم تحاولي اكتشاف ذلك من قبل، أليس كذلك يا سارة؟ ربما إذا كان هذا قد حدث، لما كنا هنا هذه الليلة ولما كانت كاترين في مكان لا يعلمه أحد.»

أزال هذا الاتهام الخشن سحر هذه التصورات بسرعة. وحدقت سارة إليه بذعر، ثم انتزعت يدها بعيداً عنه وتراجعت إلى الخلف وهي تشعر بالغثيان. كل ما قاله كان مجرد حيلة قاسية متعمدة ليجعلها تدفع ثمن ما يعتقده هو، من أنها ملأت ذهن كاترين بحكايات شاعرية عن العواطف. كم كانت غبية حمقاء لتتركه يوقع بها بهذا الشكل.

واجهته بوجه شاحب، ولكنها تمالكت نفسها رافضة أن تمنحه سرور معرفة إلى أي مدى آلمها. وقالت: «يبدو أنك ما زلت تعتقد أن الذنب كان ذنبي. لماذا؟ لأنك لا تستطيع تقبّل حقيقة أنه إذا كان ذلك ذنب أحد، فهو ذنبك أنت. لا بأس، بصراحة، لم أعد أهتم مطلقاً بما يمكن أن تعتقده. أريد فقط أن أوضح لك أمراً واحداً وهو، إذا حدث ولمستني مرة أخرى، فسأجعلك تندم على ذلك.»

وقف يشرف عليها بقامته الفارعة في الفسحة الضيقة

قرب السرير، لتعود إليها أحاسيس أخذت تطردها من ذهنها بشدة.

قال: «وأنا أيضاً أريد أن أوضح لك أمراً يا سارة. وهو أنني لن أغير أبداً.. رأيي في حقيقة الشخص الذي تسبب في هرب ابنتي.»

مشى إلى الباب يفتحه وهو ينظر إليها بعينين تقدحان شرراً وهو يتابع قوله: «إذا حدث شيء لابنتي فستأسفين لكونك جئت إلى هذه الحياة.»

مشت سارة إلى الباب والألم يتملكها لهذا الجدل العقيم، وهي تقول: «أرجو أن لا يكون قد حدث شيء لكاترين. ليس لأجلي أنا، أو لأجلك أنت، بل لأنها فتاة جميلة. وبصراحة، يا جيمس، إنك لا تستحق ابنة مثلها، وذلك على الطريقة التي تصرفت فيها نحوها خلال الشهور الأخيرة.»

عندما أرادت أن تخرج، قبض على ذراعها، ضاغطاً عليها بشدة جعلتها تتوقع أن تجد أثراً لذلك على ذراعها في الصباح. وقال: «لا تجعليني أسيء التصرف نحوك أيتها السيدة، فقد عانيت ما فيه الكفاية هذه الليلة، حتى كدت أصبح على الحافة.»

قالت: «حافة ماذا؟ زيادة في العنف؟ لم يبد أن هذا قد أتى بأية فائدة حتى الآن.»

منعها من الخروج، الاستخفاف الواضح به إلى عدم اعطائه الفرصة ليظن بأنه انتصر عليها.

ابتسم فجأة وهو يترك ذراعها، قائلاً: «ومن ذكر شيئاً عن العنف؟ إن في استطاعتي التفكير في طريقة أكثر جدوى لجعلك تسلكين الطريق المستقيم يا سارة.»

انحدرت أنظاره إلى جسدها، يتفرس في تفاصيله بوقاحة قبل أن يعاود النظر إلى وجهها وهو يتابع: «وبالنسبة إلى كون العنف لا يفيد شيئاً فأنت مخطئة برأيك ذاك.» ورفع اصبعه إلى الرضة في صدغه وتابع: «وهذا ثمن بسيط لما اكتشفته.»

قالت تسأله: «ما الذي تتحدث عنه؟ هل أخبرك أحد أنه رأى كاترين في المقهى؟» وابتعدت سارة بأفكارها عن التهديد الذي بدا في عينيه الباردتين متمسكة بالموضوع الذي جاء على ذكره لتستطيع تمالك نفسها. كل ما في الأمر أنه يحاول اخافتها... انه لم يقصد في الواقع، أن... وابتعد ذهنها عن ذلك الخاطر، لأنها لم تستطع التفاعل معه.

قال: «لقد فعلوا ذلك. لم أستطع معرفة التفاصيل، جزئياً بسبب اللغة، ثم لأننا قوطعنا بغلظة. ولكن رجلاً قال انه يتذكر رؤيته لكاترين. وما أريد أن أعرفه الآن هو، متى وأين كان ذلك؟ كذلك أريد أن أعرف سبب احجام صاحب المقهى وعدد من معاونيه عن التحدث عن ذلك.»

بدت في عينيه نظرة كئيبة توضح ما يساوره من ألم جعل سارة تفكر يائسة في ما يمكن أن تفعله للتخفيف عنه على الرغم من اختلافهما. ذلك أنه ما دامت كاترين مفقودة، فإن جيمس لن يرضى بأن يسمع منها أي شيء قد يريحه.

فجأة، تمالك نفسه ليعود فيتطلع في وجهها وقد كست الصرامة ملامحه وهو يقول: «وهنا يأتي دورك. إننا سنعود في الصباح إلى ذلك المقهى. ولن نتركه قبل أن أحصل على بعض الأجوبة. وأرى أن تذهبي الآن إلى فراشك لتنامي. إذ أنك ستكونين في حاجة إلى قواك غداً، إذا لم أكن مخطئاً.

ثمة شخص هنا يعلم شيئاً، وأنا أريد أن أعرف نوع هذا الشيء ولو اضطرني ذلك إلى أن أقلب هذه المدينة رأساً على عقب.»

أغلق الباب، ومشت سارة إلى غرفتها متباطئة ومن ثم ابتدأت تستعد للذهاب إلى السرير ولكن النوم بدا مستحيلاً. فعدا عن قلقها عما يمكن أن يكون قد جرى لكاترين، كان هناك أمر آخر يتعلق بما يجري الآن بينها وبين جيمس. ففي كل مرة كانت تغمض عينيها فيها، كانت التصورات تحتشد في رأسها. تصورات مزعجة ليدها فوق صدره، وأصابعها تتخلل شعره الكثيف الأسود.

تأوهت بضعف وهي تستدير لتدس وجهها الحار في برودة الوسادة. وتمنت لو تعود بها الأيام كما كانت، قبل أن يحدث لها ما حدث. إنها لا تريد لهذه الأفكار المزعجة عن جيمس ماك أليستر أن تستمر في تعذيبها، لقد صممت منذ سنين، على الطريقة التي يجب أن تمضي بها بقية حياتها. وهي لا تريد أن تغير ذلك الآن، خصوصاً بسبب رجل عصبي يجعلها على الدوام ثائرة الأعصاب... مما جعلها شبه مجنونة.

ملأت رائحة القهوة جو غرفة الطعام وأومأت سارة إلى المرأة التي تدير النزل، تحييها، ثم توجهت لتجلس إلى احدى الموائد الصغيرة القاتمة اللون المقامة بجانب النافذة. كان ثمة عدد قليل من الأشخاص في تلك الغرفة. زوجان جالسان إلى الطاولة بجانبها، ثم رجل كبير السن قد أنهى تناول الإفطار واستعد للخروج. وأومأت سارة لهما محيية، ثم طلبت لنفسها فطوراً بهدوء وهي تتطلع من

النافذة إلى الحديقة أثناء انتظارها ذلك. وانتبهت إلى صوت وقع خطوات ثقيلة على خشب الغرفة اللامع.. وتنفست بعمق وهي ترى جيمس ماك أليستر في طريقه نحوها، مرتدياً سروالاً رصاصي اللون، وقميصاً رمادياً فاتح اللون وقد ثنى أكمامه إلى المرفقين، وقد بدت عليه الحيوية والانتعاش. وكسته الرضة في صدغه هالة من الغلظة. ولأنها كانت قد أمضت بضع دقائق أمام المرآة تتطلع إلى صورتها الشاحبة باشمئزاز، وذلك قبل أن تنزل من غرفتها إلى غرفة الطعام، فقد كان طبيعياً أن تشعر بالانزعاج وهي تلاحظ أن جيمس ماك أليستر لم يمض ليلته أرقاً كما حدث معها هي.

كان ذلك هو السبب الأول الذي تسبب بالحدة في صوتها وهي ترد عليه التحية، ومهما كان، فقد تسارعت دقات قلبها عندما جلس إلى المائدة، مادا ساقيه الطويلتين لتلامسا ساقيها في تلك المساحة الضيقة، ثم أنها كانت قد أمضت الليلة بطولها في صراع مع كل هذه الأفكار. ولكن الآن هو الصباح، وهي مصممة تماماً على طرد كل هذه الأمور من ذهنها.

تأملها هو بصمت، وقد استقرت عيناه السوداوان على الظل عند أسفل عينيها، وشحوب وجهها. وقال: «إنك تبدين مرهقة. لقد طلبت منك أن تلتمسي شيئاً من النوم. ما الذي كنت تفعلينه طوال الليل؟»

تضرج وجه سارة وهي تبادله النظر عبر المائدة وقالت: «شكراً، ولكنني لا أذكر أنني سألتك رأيك في مظهري، يا سيد ماك أليستر، ولهذا أكون شاكرة لو احتفظت برأيك هذا لنفسك.»

قال: «همم... إنك بالغة الحساسية هذا الصباح أليس كذلك؟ وماذا بشأن السيد ماك أليستر هذا. إنني أذكر أننا قد تقدمنا خطوة أو اثنتين بالنسبة لعلاقتنا، الليلة الماضية، يا سارة.»

كانت غرفة الطعام هادئة إلى درجة جعلت صوته مسموعاً جداً لذينك الزوجين الجالسين قريباً منهما. وشعرت سارة بهما يحدقان فيها، وازداد احمرار وجهها وهي تهمس منحنية إلى الأمام: «من فضلك.. ماذا سيظن الناس بنا؟»

قابل نظراتها بهدوء وهو يرفع حاجبيه متسائلاً: «ليس لديّ فكرة عما تقصدين بسؤالك هذا يا سارة.»

قالت: «لا تكذب. إنك تعرف جيداً أن كلامك يفسّر بأننا.. بأننا...» كيف حدث أن وضعت نفسها في هذا الموقف الحرج؟

ضحك هو بعمق بصوت عال صدم أعصابها المرهفة، ومد يده يمسك بيدها وقد بدت السخرية في عينيه ليرفع أصابعها إلى شفتيه ويتظاهر بتقبيلها، ثم قال يكمل كلامها: «بأننا أمضينا الليلة معاً في سرير واحد؟ هل هذا ما جعلك تخجلين من قوله؟ إننا في فرنسا يا سارة، والفرنسيون يفهمون هذه الأشياء أكثر مما نفهمها نحن الانكليز. فلا يتملكك الحرج يا حلوتي.»

قالت: «إنني... إنني...»

أشاحت بوجهها عنه متجنبة نظراته الساخرة. لتتلاقى نظراتها بنظرات المرأة الجالسة قريباً منها، التي ابتسمت لها ابتسامة ذات معنى، وقد بان عليها الاستمتاع بما بدا لها

وكأنه مناوشة بين حبيبين. مما دفع سارة إلى التصرف بحدة، فنزعت يدها من يده وهي تنظر إليه بعينين تقدحان شرراً وهي تقول: «سأجعلك، يوماً ما، تدفع ثمن كل هذا، يا جيمس ماك أليستر.»

قال: «قد يكون هذا موضوعاً هاماً للمناقشة ولكن في ظروف مختلفة. أما الآن فإنني أكثر اهتماماً بسبب وجودنا هنا... أعني كاترين.»

ساد الصمت مرة واحدة لتتلاشى السخرية في عينيه، تلك السخرية التي أثارت توترها منذ لحظة واحدة. وعادت سارة تستقيم في جلستها وقد صعقها صمته المفاجيء. ما الذي يدفعه دوماً إلى هذا التصرف، فيقطع مناقشاتهما فجأة تاركاً إياها حائرة تترنح؟

أخذت ترشف قهوتها السوداء وقد تملكتها الحيرة لتصرفاته الغريبة، ورفعت الكعكة إلى فمها دون أن تجد لها مذاقاً. وشرب جيمس قهوته ثم وقف وهو يسألها: «هل أنت مستعدة؟ ليس عندنا وقت لنضيعه أكثر من ذلك.»

لاحظت بعض التوتر في حركات جسمه المرن مما بعث في أوصالها نوعاً من التحذير. ووضعت هي بقية الكعكة في الصحن ثم مسحت أصابعها بالمنشفة وهي تقول: «إننا لن نستفيد شيئاً إذا أنت خرجت بهذا الشكل. إن كل ما ستفعله هو إثارة المتاعب مرة أخرى.»

أجاب بسخط وهو يقف بنفاد صبر ينتظرها: «إنني لم أبدأ بإثارة المتاعب الليلة الماضية. بل هم الذين فعلوا ذلك.» تنهدت وهي تدفع شعرها إلى الخلف، قائلة: «ربما هنالك سبب وجيه لما حدث.»

قال: «أوه، نعم؟ ماذا؟ لماذا يرفض انسان، في هذه المدينة، الاجابة عن بضعة أسئلة إذا لم يكن ثمة ما يريد إخفاءه؟»

توقفت سارة خارج الباب، واستدارت تنظر إليه، وبدا لها وجهه عابساً غريباً وعيناه غير معبرتين. إنها لم تعرف سوى القليل عن جيمس ماك أليستر، وهذه هي المشكلة. فهي لا تعرف كيف تتعامل معه، كيف تقنعه بأن يكون حذراً في تصرفاته، إذا كانا يريدان أن يعرفا شيئاً عن مكان كاترين.

قال: «لماذا كذب علينا رجل المقهى؟ ولماذا حاول زملاؤه أن يمنعوني من التمادي في الأسئلة؟» وارتسمت على فمه ابتسامة باردة وتابع قائلاً: «وما معنى المثل الذي يقول: (ليس لدى البريء ما يخفيه)؟ يمكنك أن تقولي ما تشائين وتخبريني أن أتصرف بهدوء، ولكن لا تنسي أنها ابنتي تلك التي نتحدث عنها، يا سارة مارشال. فلو كان عليّ أن أتابع سؤال كل شخص في هذا المكان لفعلت دون تردد.»

قالت: «إذا أنت ابتدأت بمثل هذا الكلام، فلن نصل إلى شيء. اسمع يا جيمس، إن هذه مدينة صغيرة بعيدة نوعاً ما عن الطريق الدولي، فليس من المستغرب أن يتشكك أهلها لدى طرح مثل هذه الأسئلة. ولا بد أنك خبرت مثل هذا الوضع من قبل في أمكنة أخرى.»

قال: «لقد حدث هذا طبعاً ولا أريد محاضرة منك عن طبائع الناس يا سارة، فأنا لست أحد تلامذتك. لقد عملت فترة في قرية صغيرة في جنوب أميركا تبدو أمامها هذه البلدة مدينة كبيرة، مما جعلني ألاحظ أن عند أكثر الناس

في مثل هذه الأماكن، إحجاماً عن الإجابة عن أسئلة الغرباء، ولكن الأمر كان مختلفاً الليلة الماضية.»

بان الوجوم في عينيه وقد كسا الغضب ملامحه بالشكل الذي ظهر عليه عند عودته الليلة الماضية إلى النزل، مزيجاً بخوف حقيقي. وتابع قائلاً: «إنهم يعلمون شيئاً عن كاترين. وقد أفزعني تصور ما عسى أن يكون هذا الشيء.» وعاد ينظر إليها فجأة بعينين باردتين، ليتابع قوله: «والآن، إذا كنت انتهيت من اخباري عما يجب أن أقول وأفعل، فيمكننا أن نخرج قاصدين المقهى، وكلما أسرعنا باكتشاف الحقيقة كان ذلك أفضل. وبالنسبة إلى وضعي، سأترك أمر الكلام إليك يا سارة، لتتصرفي كما ترينه مناسباً. لقد حان الوقت لكي تقومي ببعض التكفير عما صنعت.»

مشى مبتعداً تاركاً إياها تحدق في أثره، وهي لا تدري ما إذا كان عليها أن تخبره بأن يذهب إلى جهنم، أم ماذا؟ ولكن الرقة ما لبثت أن غلبت عليها وهي ترى إمارات القلق على وجهه. ولكن، قد يكون هذا خطأ منها. ذلك أن جيمس رجل قوي صلب وقادر على العناية بنفسه أكثر بكثير منها هي في نفس ظروفه، ومن الآن فصاعداً ستفعل كل ما يطلبه منها لا أكثر ولا أقل. وستحاول أن تبقي علاقتهما على مستوى واحد. فهذا أفضل من أن تسمح لمشاعرها بأن تطفو إلى السطح. ويجب أن تكون الليلة الماضية درساً كافياً لها، هذا إذا هي أرادت أن تنسى.

الفصل السادس

كان المقهى خاوياً. سارت سارة عبر الغرفة إلى نفس الطاولة التي جلسا إليها الليلة الماضية، وهي تسمع صدى وقع خطواتها على الأرضية الخشبية. وجذب جيمس كرسياً جلس عليه في مواجهتها، وهو ينقر بأصابعه نافد الصبر، على الطاولة، جائلاً بأنظاره في أنحاء المقهى الخاوي. ولم يكن المكان في ضوء النهار بأفضل مما بدا ليلة أمس. فقد كان دهان الجدران المتساقط وبقع الدخان على الجدران خير شاهد على ذلك. وشعرت سارة بثورة تجتاح نفسها وهي تفكر في ما عسى كانت كاترين تفعل في مثل هذا المكان.

قال جيمس بخشونة: «أين أصحاب المكان؟» ولاح في نبرات صوته قلة الصبر الكافي لأن يقوما بطرح أسئلة بطريقة مهذبة. ونظرت سارة إليه قائلة: «لا بد أن يأتي أحد إلى هنا حالاً. فهذه ليست لندن حتى ولا باريس. فهم لا يأتون راكضين لدى أول لمحة لزبون. فنمط الحياة هنا يسوده الاسترخاء التام.»

رفع حاجبه ساخراً على عادته التي أصبحت سارة تدركها جيداً. وقال: «أهذا درس آخر؟ يا آنسة مارشال، أم أن ذلك فقط لتقنعيني بأنك تعرفين عن البلاد شيئاً مختلفاً عما تقرإينه في الكتب؟»

قالت: «إن التهكم هو غالباً، غير مستحسن، يا سيد ماك

أليستر، وبالنسبة إلى أن معرفتي بالبلاد وبالناس هنا، هي آتية من الكتب... حسناً...» وهزت كتفيها بعدم اهتمام مستطردة: «ربما يدهشك أن تعلم أنني عدا عن مكوثي هنا سنة دراسية في الجامعة فقد كنت أمضي عطلاتي جائلة في البلاد في جميع أنحاء فرنسا، ولا أريد أن تعتبره غروراً مني إذ أقول انني أعلم الكثير عن هذه البلاد وسكانها.»

قال: «إن ما يدهشني، أوه، لا أعني أنك تعرفين الكثير، وإنما لأنك كنت يوماً ما مغامرة بهذا الشكل. من الصعب أن يتصورك المرء طالبة صغيرة لا مبالية تحملين حقيبتك على ظهرك تطوفين بلاداً غريبة. ما الذي جعلك تتغيرين إلى هذا الحد، يا سارة؟ أهو النظام الذي شئت تطبيقه؟ أم أن هناك عاملاً مؤثراً جعلك تصممين على اتخاذ هذه الطريقة الصارمة لحياتك؟»

تضرج وجهها وهي تقول: «ليس لديّ فكرة عما تتحدث.» بدت فجأة بهذا اللون الذي انتشر في وجهها وعنقها وبدت أصغر سناً مما هي.

أخذت عينا جيمس تتفرسان فيها، ثم قال: «إنني أتكلم عن طريقة حياتك التي انحصرت في حياتك المدرسية ونظامها.»

أطلقت ضحكة قصيرة عالية وهي تقول: «إنك لا تعلم شيئاً عن نظام حياتي.» كانت ضحكة زائفة سرعان ما انتهت بصمت ثقيل ساد الجو حولهما.

قال: «إنني أعرف أكثر مما تتصورين. لقد كانت رسائل كاترين الأخيرة مليئة بأخبارك وحدها تقريباً. أم من الأفضل أن أقول: بقلة أخبارك؟»

استقر في جلسته مائلاً بكرسيه إلى الخلف وهو يرفع ساقيه على حاجز المائدة الأسفل. وبرغم أنه لم يكن بديناً، فقد كان رجلاً كبير الجسم ممتلىء العضلات كما أدركت الليلة الماضية عندما لمسته صدفة. وعادت إليها ذكريات الليلة الماضية ممزوجة بأحداث هذا الصباح حتى أنها لم تستطع، للحظة أن تفصل بينهما.

أغمضت عينيها وهي تطرد هذه الصور من ذهنها والتي لم تستطع التفاعل معها في ضوء النهار، وجيمس جالس أمامها يراقبها بعينيه النفاذتين. وقالت بخشونة: «إنني لا أنوي الجلوس هنا لمناقشة حياتي الخاصة معك.»

قال: «وأي شيء هناك يستدعي المناقشة؟ إنك تعلّمين في المدرسة... وهذا هو كل شيء. إنما يبدو لي أن حياتك الوحيدة هي الموجودة في داخل رأسك.»

بدّد الازدراء في صوته القاسي الصور في مخيلتها ليحولها إلى هشيم. وهزت رأسها بثورة مفاجئة لتقول: «تباً لك يا جيمس. إنك ما زلت على اتهاماتك هذه... ولكن، لماذا؟ ما الذي أخطأت فيه بحقك؟»

قال: «إنك عرضت ابنتي للخطر بتصوراتك الحمقاء. هذا هو السبب.» وانحنى بكرسيه إلى الأمام متابعاً: «لولا حماقتك إذ وضعت هذه الأفكار في ذهن كاترين، لما كان قد حدث ما حدث.»

قالت: «لقد أخبرتك أنني لم أفعل ذلك. إنني لم أضع أية فكرة في رأسها. ما الذي يمكن أن يقنعك بذلك؟»

قال: «لا شيء، ليس ثمة طريقة تجعلني أغير من اعتقادي... ليس ثمة طريقة...» وسكت وقد تجلّى التوتر في

ملامحه وهو يتطلع إلى صاحب المقهى الذي ظهر فجأة. وأراد جيمس أن يدفع كرسيه إلى الخلف ليقف بتوتر لولا أن سارة وضعت يدها على ذراعه تهدئه، وهي تبتسم بمرارة قائلة: «كلا.. دع هذا لي. ربما أنا مؤهلة أكثر منك للتعامل في وضع كهذا.»

مشت بهدوء إلى صاحب المقهى. ووقفت تنتظر بصبر إلى أن اضطر الرجل إلى أن يرفع رأسه ناظراً إليها، ثم تحدثت إليه بفرنسية شعبية لا يمكنه معها الادعاء بعدم الفهم. وكانت أجوبة الرجل في البداية، مقتضبة، ثم ما لبث أن انفجر في سيل من الحديث الهائج.

«ما الذي يقوله؟ هل قال إنه رأى كاترين؟» كان الغضب يتفجر في صوت جيمس برغم حاجز اللغة، ليتوقف الرجل عن الكلام فجأة وهو ينقل أنظاره بينهما وقد لمعت عيناه. ثم فجأة، أدار رأسه ينادي شخصاً ما. وشعرت سارة بقلبها يغوص بين ضلوعها عندما برز شاب من الغرفة الخلفية. وأدركت سارة من الرضوض التي في وجهه، وتحديقه في جيمس، أنه لا بد أن يكون الرجل الذي تشاجر معه ليلة أمس. وأخذ الرجلان يتحدثان معاً، ويظهر أنهما كانا يتجادلان مع أنه كان من المستحيل عليها أن تفهم ماذا كانا يقولان. ثم فجأة، بدا أن صاحب المقهى قد وصل إلى قرار متجاهلاً احتجاج زميله. فالتفت إليهما لتتنفس سارة بارتياح، وقد أحست بمقدار القلق الذي كانت تشعر به.

عندما توقف الرجل عن الكلام، أمسك جيمس بكتفي سارة يديرها إليه بلهفة وهو يسألها: «ما الذي قال يا سارة؟ ماذا

قال؟» ولكن سارة انتزعت نفسها من بين يديه ثم اتجهت رأساً نحو الباب.

قال: «إذا أنت لم تخبريني عما حدث هناك حالاً، فإنني أقسم بأنني لن أكون مسؤولاً عن تصرفاتي!»

برصانتها التي كانت تفخر بها، تجاهلته سارة وهي تسير مسافة قليلة في الشارع، ثم تتهالك جالسة على حائط من الحجر وهي تسأله برقة: «هل أنت دوماً محارب بهذا الشكل؟ أم أنني يجب أن أفخر بنوع من التأثير عليك؟»

رفعت يدها حين رأته يتقدم نحوها والتهديد بادٍ على وجهه، وهي تقول: «لا بأس، لا بأس، فلنتجنب اللجوء إلى العنف مرة أخرى. ربما لو كنت ضبطت أعصابك الليلة الماضية لاكتشفت أن كاترين بخير تماماً.»

«هل هي بخير؟» وجعلها مظهر الارتياح الذي كسا ملامحه تشعر بالندم لتلكؤها بإبلاغه هذا الخبر الطيب ولو للحظة واحدة. ولا يهم مبلغ أخطائه نحوها على الأخص ولكنه كان شديد الاهتمام بابنته. ورق صوتها دون وعي منها وابتسمت له بحرارة وهي تقول: «نعم. لقد كنت أنت على حق. لقد كانت كاترين هنا أمس مع فيليب. لقد كان ذلك الرجل واثقاً من ذلك.»

قال: «ولكن، لماذا لم يقل ذلك من قبل؟ لماذا كل هذا الغموض؟» وألقى نظرة متوحشة من فوق كتفه نحو المقهى، وتابع: «لم أفهم المعنى من أن يجعل من كل هذا سراً.»

قالت: «إنها مسألة ولاء. ذلك أن ابنه هو صديق لفيليب، وهو الذي كان في المقهى الآن. وكذلك كان واحداً من الرجال الذين قابلتهم الليلة الماضية. لقد أقنع أباه بأن لا

يتفوه بكلمة عن وجودهما هنا.» وهزت كتفيها وهي تدير وجهها نحو أشعة الشمس الدافئة. لقد كانت شديدة القلق على كاترين بعد الذي اكتشفه جيمس. ولكنهما يعلمان الآن أنها بخير، حتى ولو لم يعلما مكانها تماماً.

قال: «هذا لا يوضح كل شيء. لماذا وصلا إلى هذا الحد لكي يمنعاني من أن أكتشف شيئاً الليلة الماضية ليعودا فيقبلا بذلك هذا الصباح؟»

اقترب منها يشرف بقامته عليها مانعاً بذلك الشمس من أن تصل إليها. ولما كانت الشمس خلفه ووجهه في الظل، فقد صعب عليها أن ترى ما تعكسه ملامحه. ولكن سارة ظلت تتنهد وهي تدرك من نبرات صوته مبلغ ارتياحه. ولم تظهر عليه السعادة إلا بعد أن رددت الحديث الذي دار بينها وبينهما كلمة كلمة.

هل كانت هذه هي الطريقة التي يسيّر بها أعماله؟ أن ينبش عن الحقائق دون أن يثق بحكم إنسان مغاير لحكمه هو؟ ربما. وعلى الرغم من حقيقة أنه كان متزوجاً وأنجب طفلة، فان جيمس ماك أليستر صاحب شخصية مستقلة قوية من الصعب هدمها. هل من الممكن أن تروضه علاقة مع امرأة؟ هل تراه يسمح لها بأن تجتاز هذه الحدود التي يبدو أنه أحاط نفسه بها، عدا عن الوصول إلى خفايا نفسه؟ كان، بطريقته الخاصة، منغلقاً على نفسه بنفس القدر الذي كانت هي منغلقة على نفسها فيه. وقد كان إدراكها بأنها تشترك وجيمس بنفس هذه الصفة، بمثابة صدمة لها.

قال ملتمساً منها الجواب بنفاد الصبر: «حسناً؟»

تركت سارة أفكارها هذه جانباً لتعود إليها في ما بعد

عندما تخلو إلى نفسها في غرفتها، لتقول: «الحقيقة اني أخبرته بأنك والد كاترين، وبأنها ما زالت في الخامسة عشرة من عمرها، ولا أظن أن فكرة استدعاء الشرطة المحلية للتحقيق داخل المقهى عن اختفاء فتاة قاصر، قد أعجبته سواء بإرادتها أم بغير ارادتها.»

قال وهو يمرر يده على وجهه: «لقد فهمت الآن. أظن أن هذا معقول. أظنه كان من الأفضل لو تركت الأمر بيدك يا سارة، إذ يبدو أنك استطعت انجاز ما لم أستطعه أنا.»

كان هذا أول كلام سار قاله لها. أول كلام لا يحمل معنيين. وبدا عليها سرور لم تستطع اخفاءه، ولكنها وقفت تقطع عليه كلامه هذا.. لم تشأ أن يعتقد أنها تتصرف كتلميذة مدرسة حمقاء تلتمس منه كلمات الإطراء. ولكنها ما لبثت أن ترنحت وقد ارتطمت قدمها بحجر على جانب الطريق.

«حاذري..» وكانت يده القوية قد سبقت لتقبض على وسطها تمنعها من السقوط. كانت يداً قوية، ثابتة ودافئة. لم تكن تعرف شيئاً عن الرجال. وقد كانت قوتهم تخيفها دوماً. فلماذا يتسارع نبضها الآن إذ يلمسها جيمس؟ ولماذا تراها تطمح فجأة إلى شيء لا تفهمه؟

لا بد أن ثمة شيئاً بدا من ذلك على ملامحها، إذ شعرت به يتنفس بعمق، ومن ثم تشتد قبضته على ذراعها ثم، يتركها فجأة وهو يقول: «حاذري موقع قدميك. لا نريد حادثاً يعطلنا.»

كانت لهجته باردة، وتركه لها فجأة، جعلها تستدير مبتعدة عنه، لتخفي ألمها العميق الذي بدا في عينيها،

وشعور الحرمان الذي هزها. ذلك أن جيمس ماك أليستر لم يظهر اهتماماً بها قط كإنسان. ووجودها هنا ومعاناتها، هما فقط للتكفير عما فعلته أو ما يعتقد هو أنها فعلت. فلماذا تشعر هي بالاستياء لرفضه المتعمد والاستمرار في ذلك التقارب الحميم بينهما؟

كان صوتها بارداً متشنجاً، مخفياً استياءها، طالما تعودت ذلك عبر السنين، وقالت: «يمكنك أن تثق وترتاح إلى أنني سأكون أكثر حذراً في المستقبل. والآن، ما هي خطوتك التالية؟»

ابتعد عنها وهو يلقي بنظرة إلى المقهى خلفه، وهو يقول: «سنتابع طريقنا طبعاً. فقد فهمت أنه لم يكن ثمة ذكر لخطة كاترين.» وعندما هزت هي رأسها، تابع بسرعة: «حسناً، يمكننا أن نستنتج أنهما ما زالا في طريقهما الذي ابتدآه. لقد توقفا هنا، كما كانا قد خططا من قبل، وهكذا، إذاً نحن سلمنا بهذه الفرضية، أظن أنه من الأفضل أن نعود إلى النزل ونحزم متاعنا.»

استدار عائداً. وكانت ساقاه تطويان الطريق طياً، ولكن سارة لم تتحرك لتتبعه، وذلك لمدة عدة دقائق.

في نهاية هذه الرحلة، سيظفر هو بهدفه ويستعيد ابنته سالمة... ولكن، ماذا بالنسبة إليها؟ ما الذي ستجنيه في النهاية؟ هل سيكون في امكانها أن تعود إلى حياتها السابقة؟ أم أنها ستكتشف أن حياتها قد تغيرت بحدة إلى حد جعلها تشعر أن ذاك لم يعد كافياً.

أخذت ترقب، وهي تظلل عينيها بكفها، تلك القامة الفارعة التي تمشي أمامها. لتشعر بعد ذلك بألم مفاجىء

في قلبها. ماذا ستكون عليه حياتها عندما لا يعود جيمس ماك أليستر جزءاً منها؟ إنه يثيرها بازدرائه لها، وتصريحه الدائم بأنها دوماً على خطأ وهو على صواب. ورجولته تخيفها. ولكن، عندما يأتي الوقت لينتهي كل هذا، فستصبح حياتها أكثر فراغاً ومللاً من قبل.

كانت الشمس تميل إلى الغروب، ملونة القمم الثلجية لجبال البيرينيه بلون وردي رقيق. لقد قطعا مسافة خمسمائة ميل من باريس، وبدت لسارة انها مسافة بين الأرض وكوكب آخر. فقد كانت المنطقة مختلفة جداً بالجداول المنحدرة من الجبال، والأودية الخضراء وقصور العصور الوسطى المقامة على قمم التلال. إنها لم تزر هذه الأماكن من قبل، وقد تلهفت إلى أن تتوقف فترة تستمتع بها بهذه المناظر، مستغلة الهدوء حيث أن مرور السيارات من هنا كان نادراً. ولكن جيمس رفض أن يضيع أي مقدار من الوقت. لقد توقفا مرتين فقط أثناء رحلتهما. الأولى حين أخذا يسألان عن مدينة صغيرة كانت على الخارطة، والمرة الثانية لشراء خبز وجبن ليأكلا. ولكن الإرهاق قد ابتدأ يسبب لسارة ألماً جسمانياً شاملاً من جراء الجلوس طيلة تلك المدة في مقعدها في السيارة. ولم تشأ أن تلتمس منه التوقف قليلاً، فقد كان من البديهي أن يتوقفا قبل غروب الشمس وراء قمم الجبال لتترك منطقة الأرياف في الظلام.

أخيراً سألته: «إلى أي مدى تريد أن تستمر في المسير هذه الليلة؟ إن الظلام سينتشر قريباً.»

ألقى عليها نظرة باردة وهو يضيء أنوار السيارة قائلاً:

«إنني لا أنوي التوقف. فإننا لا نبعد الآن كثيراً عن موطن فيليب. إنها مسافة ساعتين أو ثلاث فقط.»

قالت: «وكيف يمكنك أن تجد القرية في الظلام؟ وكما يمكنني أن أدرك من الخارطة، إنها تقع خارج الطريق الدولي، ومن الخطر قيادة السيارة في هذه المناطق الريفية في الظلام.»

قال: «إنني لا أريد أن أدع ابنتي تمضي ليلة أخرى في صحبة ذلك الفتى. هل هذا واضح؟ إنني سأستمر في السير طيلة الليل لو اقتضى الأمر ذلك. إن هذه ليست نزهة يا سارة، ونحن لسنا هنا لإمتاع أنفسنا فنحجز غرفة في نزل صغير مريح لنقضي أمسية لطيفة. إننا هنا نبحث عن كاترين.»

قالت: «أمسية لطيفة... وبصحبتك؟ يا للحظ العظيم.»

ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة وقال: «تقصدين أنك لم تستمتعي بصحبتنا معاً الليلة الماضية؟ إنك تدهشينني يا سارة. لقد شعرت بأن صحبتي لك لم تكن سيئة بالنسبة إليك الليلة الماضية.»

أدركت هي ما يعني، وبطبيعة الحال، لم تجرؤ على النظر إليه لئلا يرى في ملامحها هذا الإدراك. فحولت رأسها تنظر من خلال النافذة راجية أن تبطىء خفقات قلبها المجنونة. وسمعته يضحك بهدوء وعمق جعلا جريان الدم يسرع في عروقها.

قال: «يجب عليك أن تتعلمي اخفاء مشاعرك بشكل أفضل يا سارة. كم يبلغ سنك؟ ثمان وثلاثين؟ تسعاً وثلاثين؟ وحتى الآن لم تتعلمي أول درس في تمثيلية الرجل

والمرأة. هل أنت حقيقة عفيفة إلى هذا الحد؟ أم أن الأمر كله هو تمثيل لكي تخفي حقيقتك؟»

تصاعد غضبها لاعطائه لها سناً يفوق سنها الحقيقية ليتبع ذلك بطعنة أخرى مؤلمة عندما قال (عفيفة إلى هذا الحد) لو أنه فقط يعلم... لو أنه يعلم كم من المرات تمنت لو كان الأمر حقاً كما يقول!

تدفقت عليها الكوابيس دفعة واحدة لتشهق عالياً من شدة الكرب. وقال: «ماذا جرى؟ هل أنت بخير؟» وحول عينيه عن الطريق لينظر إليها، ولكنها حولت عينيها عنه كي لا يرى ذلك الألم فيهما.

قال: «أجيبي يا امرأة. ألا تستطيعين ذلك؟»

كان في صوته الخشن من نفاد الصبر ما آلمها. وألقت إليه نظرة سريعة. لقد كان الأمر كله خطأه هو بالطبع. لقد دخل حياتها ليهدم الحواجز فتتدفق الآلام عائدة إليها. وأجابت تهاجمه نافثة كل ما تشعر به من احباط مختزن في نفسها: «ليس بي من شيء. ماذا جرى لك أنت يا جيمس؟ لماذا تظن أن لك الحق في معرفة أمور هي ليست من حقك؟ لماذا لا تهتم بشؤونك الـ...؟» وتوقفت فجأة عن الكلام، ثم صرخت محذرة بصوت عالٍ عندما رأت خيالاً قاتماً يبدو أنه سيلقي بنفسه أمام السيارة: «إنتبه!»

بحركة تلقائية، أوقف جيمس المحرك فجأة لتنزلق السيارة ثم تنحرف إلى جانب الطريق محدثة قرقعة عالية خطرة. وابتدأ يشتم وهو يوقف المحرك وينزل من السيارة ليمشي إلى الخلف متفحصاً الطريق، ليرى السبب الذي دعاها إلى الصراخ بهذا الشكل، ولكن، لم يكن ثمة شيء.

وعاد إلى السيارة وفتح الباب ثم انحنى ينظر إليها قائلاً: «حسناً؟»

قالت: «لقد رأيت... رأيت شيئاً يركض في الطريق... شيئاً يشبه غزالاً أو نعجة... أو أي شيء مماثل.»

أثارت الطريقة التي كان ينظر بها إليها عصبيتها فغاصت في مقعدها.

قال مردداً: «غزال؟ نعجة؟ أو... أي شيء مماثل؟» كان صوته هادئاً رقيقاً جعل لأول وهلة، شعوراً رائعاً بالأمان يتملكها، ونظرت إليه وقد ارتسمت على شفتيها شبه ابتسامة، وقالت مؤكدة: «نعم.. هذا ما بدا لي. لم أكن أريد منك أن تصدمه، ولهذا صرخت أحذرك.»

قال: «لقد فهمت. إنك فكرت حقاً أن غزالاً أو نعجة تستحق أن نضحي بحياتنا لأجلها. هل أنت غبية إلى هذا الحد؟ أليس لك عقل يخبرك أن لا تصرخي بهذا الشكل؟»

قالت متلعثمة: «إنني... كلا، إنني آسفة، ولكن كيف لي أن أعلم أنك ستنحرف بالسيارة هكذا؟»

قال: «أكثر الناس يحدث لهم ذلك إذا صرخ معتوه فجأة (انتبه) في آذانهم. والآن، دعينا نتأكد من أن السيارة لم يصبها الضرر، وإلا فإنك أيتها السيدة، ستندمين على فتح فمك.» وصفق الباب ثم انحنى يتفحص العجلات ويمعن النظر في كل بوصة من قاعدة السيارة، ثم وقف ينفض الغبار عن يديه وجلس خلف عجلة القيادة. وحبست سارة أنفاسها وما لبثت أن تنهدت بارتياح وهي تسمع المحرك يدور ثم تنطلق السيارة كالعادة.

حتى الآن، الأمور حسنة.

عاد جيمس بالسيارة قليلاً إلى الخلف برفق، قبل أن يتخذ الطريق العام بالسرعة العادية. ولكنهما لم يجتازا أكثر من نصف الميل ليبدأ بإطلاق الشتائم مرة أخرى. وانحرف بالسيارة جانباً وقد تجهم وجهه، ثم أخذ يتفحص المحرك.

قالت سارة بصوت متردد يبدو فيه الاعتذار وهي تستدير ببطء لترى سبب اهتمامه ذاك: «ماذا حدث؟ هل ثمة شيء قد تعطل؟»

نظر إليها ثم أشار باصبعه إلى نور يتألق على اللوحة وهو يقول بحدة خالية من التهذيب: «ألا ترين؟»

قالت بصوت خافت: «إنني... إنني لا أعرف القيادة... إنني لا أعرف شيئاً عن السيارات.»

قال: «ألا تعرفين القيادة؟ كان يجب أن أعلم ذلك.»

كان في لهجته من الازدراء ما جعل الدموع تتجمع في عينيها. ولكنها أخذت تطرف بعينيها بسرعة لكي تتخلص منها. وقالت بحدة لكي تخفي شعورها بالتعاسة: «حسناً، إنني آسفة جداً إذا كان ذلك قد أزعجك. ولكنني لم أجد سبباً أو رغبة لتعلم قيادة السيارات. والآن، إذا لم يكن في سؤالي ما يزعجك، هل يمكن أن تشرح لي ماذا جرى؟»

قال: «آه، طبعاً يمكنني أن أشرح لك الأمر بكل بساطة، وهو أن السيارة لن تتحرك بنا هذه الليلة وشكراً لك ولغزالك أو نعجتك، أو أي شيء مماثل...»

أوشكت خشونته تلك، واستمراره في استفزازها أن يجعلاها تحتد هي أيضاً، ولكنها تمالكت نفسها لتسأله: «لماذا؟ ماذا جرى لها؟ ألا يمكنك اصلاحها؟»

قال: «كلا، لا أستطيع.» وأطفأ المحرك ليبهت النور المتألق، وهو يتابع: «يبدو أننا اصطدمنا بشيء أحدث ثقباً في خزان الزيت. إن ذلك النور كان ينبهنا إلى نفاد الزيت. ولا يمكننا الذهاب إلى أي مكان قبل إصلاح هذا العطل.»

نظرت إليه بذعر قائلة: «وماذا ستفعل إذن؟» وألقت نظرة يائسة من النافذة. لقد استطالت الظلال الآن مكونة مساحات قاتمة في تلك المنطقة الريفية، وبعد وقت قصير سيحل الظلام تاركاً إياهما هائمين في البرية.

قال وهو يحاول أن يريح عضلات ظهره وكتفيه: «يبدو أن أمامنا خيارين.» واصطدمت ذراعه بذراعها وهو يتمطى، لتتراجع هي بدافع غريزي جعله ينظر إليها شزراً.

قالت بصوت بدا فيه الألم والضعف: «وما هما هذان الخياران؟» لقد عم الهدوء المنطقة الآن بعد أن توقفا عن السير. ولم يكن يعكر هذا الهدوء سوى خرير جدول ينساب منحدراً نحو الوادي.

أحدث السكون العميق ووحشة البرية، نوعاً من الإلفة بينهما وهما يجلسان في السيارة جنباً إلى جنب. إلفة جعلتها تشعر بالعصبية وعدم الارتياح في نفس الوقت. إنهما مرغمان على قضاء الليل هنا، هذا إذا لم تتحرك السيارة... وحدهما معاً.

قال: «يمكننا أن نسير إلى أقرب قرية، أو أن نمضي الليل هنا راجين أن يمر من يمكنه اسداء المعونة لنا.»

هل خيل إليها هذا، أم أن صوته كان أعمق من المعتاد وأكثر رقة؟ لقد تسربت نبرات صوته كالمخدر في شرايينها. وهزت سارة رأسها تنفي عن ذهنها هذه

التصورات المجنونة. ولكن، كان من المستحيل أن تمحو من صوتها عصبيتها تلك وهي تسأله: «كم تبعد عنا أقرب قرية؟ يبدو أن الأقرب إلى المعقول هو أن نجرب الذهاب إليها مشياً على الأقدام. هذا أفضل من تمضية الليل في السيارة.»

قال: «إن ذلك ليس أقل من عشرين كيلومتراً.»

قالت: «عشرون كيلومتراً؟ لماذا؟ إن هذا يعني مسافة طويلة؟»

قال: «نحو اثني عشر ميلاً.»

قالت: «هذا، إذن، غير ممكن. لا يمكننا السير كل ذلك الطريق في الظلام.»

لم يكن أمامهما العديد من الخيارات. كيف يمكنهما قضاء ساعات الليل الطويلة معاً في نفس السيارة بهذه الظروف التي تحمل على الإلفة والمودة؟ ودفعها اليأس إلى فتح باب السيارة والخروج لتلقي نظرة على الطريق الذي أقبلا منه، آملة في أن ترى أنوار سيارة قادمة. ولكن الطريق كان خالياً. فقد كان أنين الرياح هو الصوت الوحيد المسموع. والآن قد اختفت الشمس كلياً، ابتدأ الهواء بالبرودة التي ينقلها من قمم الجبال الثلجية. وأحست سارة برعشة باردة تشمل جسدها، وثنت ذراعيها حول جسدها وهي تنظر حولها، تفكر في اللحظة التي يتوجب عليها فيها أن تدخل إلى السيارة لتمضي بقية الليل وحدها مع جيمس ماك أليستر في جوف البرية.

جاءها صوته بما يشبه الأمر: «ادخلي قبل أن يصيبك البرد.»

ألقت إليه بنظرة متعجرفة وقالت: «إنني بخير، وسأدخل ساعة أشاء. شكراً.»

خرج هو من السيارة بعد أن سحب «كنزة» صوفية من المقعد الخلفي ووضعها على رأسه قبل أن يسير نحو مجموعة من الأشجار، وهو يقول: «كما تشائين.»

هتفت به وهي تحاول أن تتبعه: «انتظر... إلى أين أنت ذاهب؟» ولكنها توقفت وهي تراه ينظر إليها من فوق كتفه ساخراً وهو يقول: «كنت أرجو أن أذهب دون أن تلاحظي ذلك، ولكن الوسائل لذلك محدودة هنا. وعلينا في هذه الحالة، أن نستعمل ما يتيسر لنا من الأشياء لذلك.»

قالت: «الوسائل... أوه...!» وأدركت غرضه فجأة، لتستدير عائدة إلى السيارة تتخذ فيها مقعدها وقد ألهب وجهها الشعور بالحرج. لقد كان من سوء الحظ احتجازهما هنا، ولكن الأسوأ من ذلك أن المرء لا يتيسر له أدنى وسائل الراحة عند اضطراره إلى القيام بإحدى الوظائف الطبيعية... لماذا صاحت به تسأله بهذا الشكل؟

الآن، لقد انحصرت أمانيها في أن يمر بهما من يمد لهما يد العون.

مرت الدقائق متباطئة وقد اختفت الشمس وراء قمم الجبال، بينما أخذ الظلام يزحف على تلك البراري. ونظرت سارة إلى ساعتها وهي تحسب كم من الوقت ستقضي قبل أن يطلع الصباح. وتجمد الدم في عروقها وهي تسمع صوت محرك سيارة. ولكنها ما لبثت أن أحست بالارتياح بعد ان شعرت أن العون ربما قد جاءهما بأسرع مما توقعا. وخرجت من السيارة لتركض

في الطريق، وهي تلوح بذراعيها لتستوقف السيارة القادمة نحوهما.

«انتبهي.» وأحست بذراعين تلتفان حول وسطها لتقذفها بعيداً عن الطريق، في الوقت الذي اندفعت فيه السيارة متجاوزة إياها والتي كانت من القرب منها بحيث لفحها الهواء الساخن من المحرك.

قال جيمس معنفاً: «إن هذا أكثر الأعمال غباء. كيف تندفعين في الطريق بهذا الشكل؟ أجيبي..» وهزها بعنف جعل رأسها يهتز كرأس دمية. وقد ضغطت أصابعه على ذراعيها حتى كادت تنغرز في لحمها وهو يتابع قوله: «كان من الممكن أن تقتلي لو لم أمسك بك في الوقت المناسب.»

هزت سارة كتفيها. لقد كانت متأكدة من أن السيارة ستتوقف إذا هي اقتربت منها بهذا الشكل.. ولكن... وانتزعت نفسها من يدي جيمس الخشنتين وهي تقول: «كنت أحاول أن أطلب المساعدة. وهذا كل شيء. كيف كان لي أن أعلم أن ذلك المعتوه قد يقتلني؟»

قال باحتقار وهو ينظر إلى السماء المظلمة: «يمكن ذلك بشيء من اللباقة.» وعاد ينظر إليها مستطرداً: «إن المكان هنا شديد الظلمة و.. أظن السائق كان سيراك قبل أن تكتسحك عجلات سيارته. أما كان الأجدر بك أن تعملي عقلك قبل أن تندفعي بهذا الشكل؟»

ضحكت بمرارة وهي تقول: «إنك الآن تتهمني بالتسرع، وهذا الصباح اتهمتني بالتشدّد.. ألا ترى أن هاتين الصفتين متناقضتان؟»

قال: «كلا. وأظن أن إحداهما ناتجة عن الأخرى. ذلك أنك

أمضيت سنين عديدة من حياتك محصورة ضمن نظام معين، وما أن أتى وقت تتحررين فيه، حتى اندفعت إلى الطريق دون تفكير! والآن، إذا كنت قد انتهيت من التسبب في المشكلات لهذه الليلة، فإنني أقترح أن تعودي إلى السيارة، لأنني أشعر أن درجة الحرارة ابتدأت في الانخفاض. ولا نريد ان تنتهي بنا هذه الليلة وقد تعرضنا للبرد، إضافة إلى كل المزعجات الأخرى.»

فكرت هي في أنه يعني المزعجات التي تسببت هي فيها. طبعاً هو لم يقل ذلك حرفياً، ولكن ذلك كان واضحاً من لهجته. لا بد أن فكرته عنها في غاية السوء. ولا يبدو هناك أي احتمال في تغيير فكرته تلك، خاصة وهي لا تفتأ ترتكب الحماقات. ماذا جرى لها؟ إنها تفسد كل شيء تتدخل فيه، بينما هي تلك المرأة المسؤولة الناضجة ذات الوظيفة المحترمة.

تبعته سارة بصمت إلى السيارة حيث استقرت في مقعدها مستندة إلى الباب تاركة فسحة بينها وبينه. وكما سبق وقال، أخذ الجو يزداد برودة. وأخذت هي تفرك ذراعيها بيديها تلتمس الدفء لينظر هو إليها متسائلاً: «هل تشعرين بالبرد؟»

أومأت برأسها وهي تغوص في مقعدها متجنبة نظرته المتفحصة إلى أن سمعته يتنهد بصوت مسموع وهو يخلع «كنزته» قائلاً: «هل تراك تمثلين دور الشهيدة، يا سارة؟ والآن خذي البسي هذه، فهي ستدفئك.»

ناولها الكنزة، ولكنها هزت رأسها رفضاً وقد بان الازدراء في عينيها الزرقاوين وقالت: «كلا، شكراً. إذا أنا

شعرت بالبرد فعندي بعض الملابس المدفئة في حقيبتي، وسأخرج بعضاً منها.»

قال: «ماذا؟ تلك القمصان والكنزات الخفيفة المخرمة؟ إنك بحاجة إلى ملابس أكثر دفئاً. ومد يده يمسك بمعصمها يجذبها إليه. وضاقت عيناه عندما حاولت أن تمانع. وقال: «لا تقلقي يا حلوتي. إنني لا أحاول اغتصابك. إنني فقط لا أريدك أن تصابي بالتهاب رئوي مما يزيد في مشكلاتي.»

بحركة واحدة، أدخل رأسها في الكنزة، مدخلاً يده ليمسك بذراعها ويدخلها في الكم عندما لم تحاول هي التجاوب معه. وتصلب جسدها وهي تقول: «إنني... إنني أستطيع القيام بذلك بنفسي.» ولكنه مضى في عمله دون أن يجيب وشعرت هي بضربات قلبها تتلاحق وهي تحس بدفء يده على جسدها.

عندما تحركت يده ببطء لتدفع يدها داخل كم الكنزة، حاولت أن تمنعه. ولكن يده مضت في عملها ببطء، ليأخذ معصمها الآخر ويكرر نفس العملية. وعندما انتهى وسحب يده، بقيت تشعر بتأثير ذلك على مشاعرها للحظة بدت لها أبدية.

قالت: «جيمس...» لفظت شفتاها اسمه برقة متناهية لم تكد تخترق الصمت الذي ساد بينهما. ولكنها كانت تعلم أنه سمعها، وعرفت من الطريقة التي قابل فيها نظرتها أنه فهمها كما فهمت هي نفسها.

امتدت ذراعه تجذبها نحوه لتحتضنها. وتمتمت مرة أخرى: «جيمس... إنني.»

قاطعها فجأة: «إنني سأخرج لاحضار كنزة أخرى من

حقيبتي.» وخرج من السيارة صافقاً الباب خلفه بعنف متجهاً إلى الصندوق. وغصت سارة بريقها وقد تجمعت الدموع في عينيها. لماذا تلفظت باسمه بهذا الشكل؟ ألم تكن تدرك أن في ذلك، بالإضافة إلى نظرتها تلك إليه، دعوة صريحة؟

أغمضت عينيها وقد تملكتها التعاسة. وسمعت صوت قدومه وهو يفتح باب السيارة ويتخذ مجلسه بقربها وراء المقود، وهو يقول: «من الأفضل أن نحاول نيل قسط من النوم، ذلك أنه إذا لم نحصل على عون عند الصباح، فإن علينا أن نمشي إلى القرية، ولهذا من الأفضل أن نحتفظ بقوانا.»

كان صوته بارداً غير معبر... فهمت منه أن ما حدث بينهما منذ دقائق قد انتهى. كان اندفاعاً غريزياً لا ينبغي له أن يتكرر. ويجب أن ينسيا كل شيء عنه كأي شخصين عاقلين. ولكن، في أعماقها كانت سارة تدرك أنها لا يمكن أن تنسى أبداً تلك/اللحظة.

لو أن جيمس استدار إليها في تلك اللحظة، فاتحاً ذراعيه، هل كانت ستلقي بنفسها بينهما دون أي تفكير في الماضي؟

الفصل السابع

كانت سارة تدرك في أعماقها أنه كان حلماً. وهي تدرك أنها لو استطاعت أن تتخلص من كابوس عقدتها ذاك، لكانت أصبحت حرة. ولكن الخلاص الآن قد أصبح مستحيلاً.. فقد كانت الخطوة مؤلمة، وكان يجب أن تسبقها خطوة أخرى خفية لعل في ذلك يتم الخلاص.

تحركت بعدم ارتياح وقد شعرت برأسها يلتوي على المسند الجلدي، وتحرك جفناها باضطراب عندما ابتدأت الصور تظهر تحتهما.. الصور التي ما فتئت تزورهما منذ سنين.

«كلا! كلا!.. أرجوك.. كلا!» وكان صوتها أبح يملؤه الرعب ويخترق أعماق الصمت الذي كان يتجاوب في عقلها ليزداد الرعب في نفسها. وعندما شعرت بيدين تمسكان بها بشدة، صرخت بصوت يشبه العويل قبل أن ينتهي بأنين متقطع لا ينتهي.

«إستيقظي يا سارة... هيا.. إستيقظي.» وشعرت بنفسها ترفع وبجسدها يسبح في العرق. وقلبها يضخ الدم في أنحاء جسدها. وأخذت، دون وعي منها تتلوى وتهتز وتستدير وتخدش اليدين اللتين كانتا تمسكان بها. وسمعت صوتاً خشناً يهتف بها، وشيئاً يمسك بوجنتها يحاول إيقاظها وتخليصها من الكابوس بشكل مفاجيء جعلها تهتز وترتعش. وحدقت إلى الشخص المنحني عليها

بعينين متسعتين وهي تحاول أن تتمالك نفسها مرة أخرى. ووضعت يدها على وجنتها شاعرة بحرارتها من أثر ضربة جيمس في محاولته لإيقاظها.

وقال بصوت خشن: «لقد كنت تعانين من كابوس. وكان عليّ أن أضربك كي تستيقظي. إنني آسف.» وأومأت هي برأسها وحولت وجهها إلى النافذة تنظر إلى الظلام بعينين ساهمتين. أتراها قالت شيئاً أثناء ذلك الكابوس؟ هل أفصحت عن الرعب الذي يساورها دوماً عندما تزورها الأحلام؟.. والعجز الكامل؟ لم تستطع أن تتقبل فكرة أن يعلم بالأمر.

أحست بالذعر لذلك، فقفزت من مكانها واستدارت تنظر إليه. وتلاقت نظراتهما لحظة قبل أن تشيح بوجهها. لقد كان من الصعب عليها أن تقرأ تعبيرات وجهه، أو ما هي الأفكار التي تعتمل وراء ذلك القناع الجامد الذي يضعه على وجهه.

وقال بصوت منخفض: «أتريدين أن تتحدثي عن ذلك؟» فهزت رأسها ليتناثر شعرها حول وجهها وقد تساقطت المشابك منه. ثم عاد فقال: «يمكنني أن أساعدك. إن لديّ شعوراً بأن هذا الحلم ليس هو الأول. أليس كذلك؟»

فقالت وهي تحس بالجفاف في حلقها وصعوبة في إخراج الكلمات: «كلا.» وساورها الألم إذ تفكر في ما قد يفهم من قولها هذا. وتابعت: «أعني كلا، لا أريد أن أتحدث عنه. إنه مجرد حلم سيىء. وهذا كل شيء.»

فقال: «كان حلماً من السوء بحيث كنت تتخبطين كامرأة مجنونة. كان من السوء بحيث كنت تصرخين وكأن حياتك في خطر. اللعنة على ذلك يا سارة، لماذا تكذبين؟ لقد اعتدت

على ذلك الحلم من قبل، أليس كذلك؟ لماذا؟ هل هو نتيجة شيء حصل لك، ولا تنفكين تبعثينه إلى الحياة على الدوام؟»

وجعلها الخوف تتكلم بسرعة لتنفي الحقيقة: «كلا. لقد كان مجرد حلم لا أكثر. ألم يحدث لك أنت أن رأيت حلماً سيئاً، أم أن جيمس ماك أليستر العظيم يملك مناعة ذاتية ضد مثل هذه الأشياء؟»

فقال: «أوه، لقد لازمتني الكوابيس فعلاً في المدة الأخيرة نتيجة قلقي عما يمكن أن يكون قد حدث لكاترين. ولكنني لا أذكر أنني شعرت بمثل الفزع الذي ظهر عليك الآن يا سارة.»

فقالت وهي تشيح بوجهها عن عينيه المتفحصتين: «إنني...»

فقاطعها: «مهما كان ذلك الحلم، فما زال يملك من السيطرة والقوة بحيث يؤذيك. لماذا لا تخبريني عنه يا سارة؟ ربما إذا نحن وضعناه تحت المناقشة، يكون في ذلك فائدة لك.»

كان في صوته نوع من العطف، وشعرت للحظة واحدة بدافع إلى أن تفرغ كل ما في نفسها، وأن تشارك إنساناً آخر في هذا السر الذي أخفته كل تلك السنين... ولكن، عاودها حذرها فجأة... كيف تخبره بذلك؟ كيف يمكنها أن تحتمل تحول نظرات العطف تلك إلى نظرات تحمل كل معاني الإزدراء والإحتقار؟

عادت تقول: «ليس عندي شيء أخبرك به. إنه مجرد حلم فظيع لا غير.»

فقال: «كما تشائين. إنني لا أستطيع أن ارغمك على

الكلام. ولكن، ليس ثمة شيء يمكن أن يغير رأيي يا سارة، وهو أن هنالك أكثر من هذا الكابوس... أكثر مما صرحت عنه..»

لذعتها نبرة الثقة في صوته. فاستدارت إليه لتقول بسرعة: «ومن تظن نفسك لتجلس وتستجوبني عما أحلم به ولماذا؟ إنك رجل صعب يا جيمس ماك أليستر إلى حد لا يصدق بعجرفتك هذه وباعتقادك أنك دوماً على حق. ولا عجب ان وجدت ابنتك كاترين مؤخراً أنها لا يمكنها التفاهم معك. وأنا أشك في أنك استمعت يوماً من الأيام إلى ما تقوله لك...»

وأظلم وجهه بالغضب وتلاشى من ملامحه كل آثار العطف ليبدو وجهه قناعاً جامداً، وهو يقول: «أنا لا أريد أن أناقش معك علاقتي مع ابنتي. لقد كنا نتحدث عنك يا سارة. فهل هذا يسبب لك عدم الإرتياح؟ هل هذا ما دعاك إلى تغيير الموضوع؟»

فقالت متلعثمة: «أنا... كلا!»

ولم يلتفت إلى معارضتها وبقي يحدق فيها متمعناً، كيف ندمت على كلماتها المتسرعة وعلى تحديها له مرة أخرى. كان يجب عليها أن تعلم بالخبرة أنها دوماً تخرج خاسرة عقب كل جدال معه.

وقال: «يبدو لي أن المشكلة الحقيقية تكمن في رفضك الحديث عن هذه العقدة في حياتك. وربما لو كشفت عنها لما عاودتك الآن.»

وهز كتفيه بخفة دون أن يحول نظراته عن وجهها متابعاً: «يمكنك أن تكذبي قدر ما تشائين وتقدمي أي نوع

من الأعذار، ولكن ذلك لم يكن مجرد (حلم سيىء)، أليس كذلك؟ لقد كان كابوساً اعتاد أن يأتيك مراراً.. كابوساً هو نتيجة شيء حدث لك في الماضي.»

«كلا...» كانت تريد أن تصرخ نافية.. أن تصرخ بذلك بشدة ووضوح في وجهه المتعجرف. ولكن هذه الكلمة خرجت من بين شفتيها همساً. لقد تسرب الغضب من نفسها تاركاً إياها ترتجف وكأنما هي تعترف بصحة قوله ذاك. هل كان كذلك مصيباً في قوله إنه كان عليها أن تتحدث عن هذا الأمر قبل الآن؟ هل كان عليها ان تكشف عن هذا السر القاتم لاحتمال أن تجد شفاء لجرحها ذاك؟

ساد بينهما صمت ثقيل ضغط على أعصابها فأرهقها. وفجأة سمعت جيمس يتنهد بهدوء قائلاً: «إنسي هذا يا سارة. فقد تأخر بنا الوقت وأنا مجهد جداً بحيث لن يمكنني متابعة حديث كهذا. والأفضل لنا، نحن الاثنين، أن نلتمس شيئاً من النوم.»

وأطفأ الضوء الداخلي لتغرق السيارة في الظلام مرة أخرى. واتكأت سارة على الباب مصغية إلى تنفس جيمس المنتظم وقد أراح رأسه إلى مسند مقعده. وأخذت تنظر إليه محاولة أن تتبين تفاصيل جانب وجهه حيث كان يبدو عليه الاستسلام للنوم. وشعرت نحوه بالحسد لذلك، ذلك أنه لم يكن بمقدورها النوم الآن. خاصة بعد ذلك الجدل الذي دار بينهما وكذلك بتأثير ذلك الكابوس الذي ما زال ماثلاً في ذهنها.

تحول وجهه نحوها مرة واحدة لتشعر، لذلك، بالعصبية وبقلبها يخفق بعنف داخل صدرها. فحولت وجهها فجأة

متكئة برأسها على حديد الباب البارد، وقد ساورها شعور بالوحدة لم تشعر به في حياتها. وسالت من عينها دمعة واحدة مستوحشة لتمسحها هي بسرعة بيد مرتجفة وقد خشيت، إذا هي فقدت تمالكها لعواطفها، أن لا تستطيع، بعد ذلك، التوقف.

«هل أنت بخير؟» فاجأها صوته خشناً نافد الصبر، بخلاف يديه اللتين أمسكتا بكتفيها برقة ليديرها في مواجهته وهو يجذبها إليه، إلى درجة استطاعت فيها سارة أن تميز لمعان عينيه برغم الظلام. وحاولت هي تلقائياً ان تتملص منه، ولكنه أمسك بها بقوة وقد أحاط جسدها الرقيق بذراعيه مريحاً رأسها على كتفه. ثم تكلم بصوت هادىء عميق بعث الدفء في أعصابها المتوترة وذهب بذلك الشعور بالوحدة الذي انتابها منذ لحظات. وقال: «ربما كنت خشناً معك وواضح أنك ما زلت مستاءة. ولكن جربي أن تريحي نفسك إذ من غير المحتمل أن يعاودك ذلك الكابوس هذه الليلة. أليس كذلك؟ والآن، حاولي أن تنامي.»

وأخذ يمر بيده الكبيرة الدافئة على شعرها. وأرادت سارة أن تطلب منه الكف عن ذلك. ولكن الكلمات، لم تخرج من بين شفتيها. وشيئاً فشيئاً، أخذ جسدها بالإسترخاء.

وقال فجأة: «هل أنت أحسن حالاً الآن؟» وكان في صوته ما أجفلها. وأومأت برأسها مجيبة. وعادت أصابعه تجول في شعرها الكث، واستكانت هي للشعور بالأمن والسلام اللذين خلفهما ذلك في نفسها. الأمن والسلام اللذان لم تشعر بهما منذ وقت طويل... وقت طويل جداً.

وعندما توقفت يده عن الحركة، عادت هي تدس رأسها

في كتفه كالقطة تطلب مزيداً من الملاطفة. وسمعته يضحك بصوت خافت قائلاً: «لقد أحببت هذا، أليس ذلك؟»

بعث صوته رجفة في اوصالها ورفعت وجهها عن كتفه برغم تمنيها أن تدوم هذه اللحظات.. ولكن ذلك لم يكن ممكناً. لقد كانت هي سارة مارشال المعلمة، وكان هو جيمس ماك أليستر، والد إحدى تلميذاتها. وهذا كل ما كان يمكن أن يكون بينهما. وغمر نفسها حزن عميق، وللحظة إرتفعت يدها وكأنها تريد لمسه قبل أن تسقط إلى جانبها ثانية بصمت. لقد كان يقدم إليها الراحة لا أكثر ولا أقل مما كان يمكن أن يقدمها إلى أية إمرأة أخرى وجد نفسه معها في ظروف مماثلة. وهي ستكون حمقاء لو أنها توقعت شيئاً أكثر من هذا في هذه الفترة الثمينة من السلام.

وسألها بهدوء: «هل أنت بخير؟» وانحدرت أصابعه إلى ذقنها ليدير وجهها إليه. وشكرت سارة الظلام إذ أخفى مشاعرها.

وقالت بصوت هادىء كذلك: «نعم.» كلمة واحدة مختصرة هي كل ما استطاعت قوله. الكلمة الوحيدة التي خالتها لاتنبىء عما في نفسها. ولكن يبدو أن جيمس لمس الحزن في لهجتها إذ أنه انحنى ينظر في عينيها قائلاً: «هل أنت متأكدة؟» فأومأت هي برأسها صامتة وقد ارتفعت خفقات قلبها حتى خشيت أن يسمعها. ورفعت رأسها لتبتعد عنه. ولكنه شدد من احتضانه لها. وهمست: «جيمس.» كان اسمه عذباً في فمها إلى حد شعرت معه بأنها تريد ترديده مرات ومرات.. ولكن جسدها ما لبث أن تصلب.. ما الذي

تنتظر؟ القسوة التي آلمتها مرة؟ الغلظة التي ألقت الرعب في نفسها من قبل؟

ولكن ما كان يحذرها عقلها منه، لم يحدث.

وفجأة أحست بالعار لموقفها ذاك... ماذ هي بسبيله؟ وحاولت أن تخلص نفسها منه ولكنه كان يشدد من احتضانه لها. وقالت لاهثة: «دعني.. دعني أذهب.»

كان صوتها مليئاً بالحرج... ولدهشتها، تركها فجأة بهدوء ولطف وهو يتطلع إلى وجهها خلال الظلمة يمعن النظر في وجهها الشاحب الذي بدا عليه الخجل وقد تلاشت من نفسها كل المشاعر التي اكتنفتها من قبل.

قال: «إننا لم نفعل أي شيء خطأ يا سارة.. لا شيء يجعلك تشعرين بهذا الخجل.» كان صوته رقيقاً حنوناً أكثر مما توقعت وأكثر مما تستحق إذ سمحت له منذ البداية أن يلاطفها بهذا الشكل.

قالت وقد سقط آخر مشبك من شعرها لينسدل على كتفيها: «أحقاً؟ إنني لست من الخبرة بحيث أستطيع أن أحكم على مثل هذا التصرف.»

فقال: «أصحيح هذا؟ ولكنني رأيت منك تجاوباً جيداً.» ولم تنتبه هي، والشعور بالعار يكتنفها، إلى أنه إنما يقصد إغاظتها من باب المزاح بكلامه هذا، فقط لكي يدخل الراحة إلى نفسها. فقالت: «حسناً اني آسفة إذ جعلتك تأخذ عني هذه الفكرة. كان يجب أن أدرك أنك دوماً تظن بي الأسوأ.» وضحكت بمرارة وهي تتابع: «ربما ستتهمني في المرة القادمة بمحاولة إغوائك.» فقال: «لا اظن ذلك. ربما عندي أخطاء يا سارة، ولكن عدم الإعتراف بالخطأ ليس واحداً

منها. لقد احتضنتك لأنني أردت ذلك أكثر من أي شيء آخر في العالم.» وأمسك بشعرها يشده ليجبرها على النظر إليه بينما أضاء هو النور قائلاً: «لقد ساورتني رغبة ما... يا سارة لولا أن عقلك نبهك إلى ذلك في الوقت المناسب.»

تلعثمت سارة وهي تتمتم: «أنا... جيمس... إنني...» ولم تعرف ماذا تقول. لم تجد الكلمات المناسبة لتعبر عما في نفسها... لو لم تعد إلى رشدها وتنسحب من بين ذراعيه في الوقت المناسب لكانت هي وجيمس...

أغمضت عينيها وقد شحب وجهها. لم يخطر في بالها من قبل أنها يمكن أن تشعر نحو رجل بمثل ما شعرت به مع جيمس.

قال فجأة: «لقد كان شعورك نحوي مثل شعوري نحوك، أليس كذلك يا سارة؟»

هل تراه قرأ أفكارها؟ ولم تستطع أن تكذب برغم تعقلها وشعورها أن من الجنون الاعتراف له بذلك. وقالت: «نعم.»

فتنهد وهو يقول: «نعم. أعتقد أن هذا أحد الأسباب التي تدفعنا دوماً إلى الجدل بكثرة. إن التجاذب العاطفي يمنح مشاعر قوية.»

ماذا كان يقول؟ هل كان يعني حقاً أنه يشعر بالانجذاب نحوها؟ ولا بد أن الصدمة بدت على وجهها لأنه ابتسم ببرود وقد خلت عيناه من الدفء وهو يقول: «أرى أن كلامي هذا قد أدهشك يا سارة؟ أعني شعوري نحوك.» وألقى نظرة قاسية على جسدها المتصلب وتابع قائلاً: «إنه يدهشني أنا أيضاً، ذلك لأنك لا تحوين شيئاً من أوصاف النساء اللاتي يجذبنني.»

تضرج وجهها إزاء سخريته القاسية. ومضت تحدق فيه

بصمت دون أن تتمكن من إخفاء ألمها لما قال. كان من الواضح أن رجلاً جذاباً مثله لا بد أن تكون لديه صديقات. ولكن أن يتكلم عنهن بمثل هذه اللهجة أمامها، كان ذلك أكثر مما تطيق.

وقال: «ماذا جرى يا سارة؟ لماذا لا تقولين شيئاً؟ هل آذيت احتشامك بالحديث عن مثل هذه المواضيع؟» وهز رأسه لتسقط خصلة من شعره على جبهته العريضة مما أكسبه وسامة بالغة، وتابع «أذكر انني اتهمتك مرة بأنك تقومين بدور تمثيلي عليّ. وأنا أتساءل الآن عما إذا كنت حقاً بعيداً عن الحقيقة في هذا. ذلك أن تجاوبك معي كان يحوي أي شيء ما عدا الاحتشام يا حلوتي.»

لماذا أصبح فجأة بمثل هذه القسوة؟ لماذا يلسعها دوماً بلهجته الباردة الخشنة ليجعلها تشعر بمدى حماقتها؟

بادلته سارة النظر لحظة طويلة. ثم تنفست ببطء بينما تلاشت آخر نفحة من السحر الذي اكتنفها كما كان يجب أن تعلم بذلك. لقد خلت حياتها من أي نوع من السحر وذلك لسنوات عديدة، ولهذا كان من الحماقة أن تتوقع أن حياتها تلك قد تتغير.

وقالت: «لا استطيع تغيير طريقة تفكيرك، يا جيمس. لهذا لن أضيع الوقت في مثل هذه المحاولة، يمكنك أن ترجع تجاوبي معك إلى أي سبب شئت، ولكنني أشك في أنك ستكون على صواب.» كان صوتها مماثلاً لبرودته هو. وبدا الغضب في عينيه قبل أن يبتسم بعبوس قائلاً: «إنك سريعة التأثر يا سارة. إنك تبدين مختلفة جداً عما كنت أظنك عليه عندما ابتدأنا هذه الرحلة.»

أمسكت بذوائب شعرها المنسدلة حول وجهها لتجعل منها جديلة وهي تشعر بالسرور إذ ترى يديها تعملان بثبات. وقالت: «أحقاً؟» فقال: «مختلفة جداً. إن فيك عمقاً خفياً يا سارة مارشال، وأنا لا أعني بقولي ذلك السر القاتم الذي يبدو أنك مصممة على الاحتفاظ به لنفسك. إنه يجعلني أتساءل عما يمكن أن يكون إذا أنا حاولت الغوص في أعماقك.»

وانحدرت أنظاره إلى فمها برهة قبل أن يعود فينظر في عينيها قائلاً: «إن فيك نوعاً من الإثارة الكامنة يا سارة.. إثارة لم تكتشف من قبل ولا يمكن لرجل أن يقاومها.»

ساورها خوف حاد ولكنها قاومته وهي تقول: «إذا كنت تعني أنك ستكون الرجل الذي يكتشف ذلك فلا تزعج نفسك. فأنا لست معروضة في السوق أطلب صديقاً. وشكراً جزيلاً.»

وبسرعة اصعقتها، مد يده يجذبها نحوه وهو يقول: «كلا؟ أظن أن هذا تماماً ما أنت في حاجة إليه. إنك في حاجة إلى صديق ينتشلك من نمط حياتك ذاك.»

فجذبت نفسها منه وهي تقول: «كيف تجرؤ على هذا الكلام؟» ودفعت يده عنها لتعود فتغوص في مقعدها ثانية وهي تقول: «لا أريد منك أو من أي شخص آخر أن يعلمني كيف أعيش حياتي الخاصة.»

فقال: «إنك مخطئة في ذلك. يجب أن تجدي رجلاً لتعيشي حياتك قبل أن يفوتك القطار. هل حياتك الآن هي حقاً بالشكل الذي تريدينه يا سارة؟ هذه الحياة الموحشة؟ إنك في حاجة إلى رجل ككل إمرأة.»

فضحكت سارة بمرارة وهي تقول: «تعني الحب أم

الصداقة؟ أتظن أن عليّ أن اقفز إلى أول رجل يدعوني؟ وذلك للخلاص من مشكلاتي؟» وعضت شفتها قبل أن تتحول مرارتها تلك إلى هستيريا واستطردت تقول: «حسناً، إذا كان هذا يعني تقديم نفسك إليّ، فالجواب هو كلا... وشكراً. انني لا أريد علاجاً من هذا النوع.»

فقال: «إنني لا أقدم نفسي وإنما أقوم بالفحص. إنني اعترف بأني أجد فيك نوعاً من الجاذبية، ولكنني أفضل أن تأتي إليّ المرأة التي أريدها من تلقاء نفسها ومن دون حبال تشدها إلى الخلف، وأنت يا حلوتي ثمة حبال كثيرة تشدك إلى الخلف مما يأخذ مني العمر بطوله لأنفذ منها.» وهز كتفيه ببساطة واستطرد «على أي حال، إذا أنت استطعت أن تتخلصي من كل هذه الحبال، فارسلي إليّ خبراً.»

فقالت بحدة: «إنني لن أرسل إليك أستدعيك ولو كنت الرجل الوحيد الباقي في هذا العالم يا جيمس ماك أليستر. هل هذا واضح؟»

وأدارت له ظهرها متكئة على الباب. وتضرج وجهها إذ سمعته يتمتم شيئاً هامساً بلطف... شيئاً ذا معنى... أغمضت عينيها متظاهرة بالنوم، ولكنها لم تنم إلا بعد وقت طويل من انتظام أنفاسه.

لقد كانت تفكر في تلك الدقائق السحرية التي أخذها فيها بين أحضانه. ولم تفكر في الخطأ أو الصواب في هذا الفعل، ولا ما حدث في الماضي. لقد تجاوبت معه في مشاعرها وكأنها كانت في انتظار هذه اللحظة طيلة حياتها.

الفصل الثامن

انقشع الضباب ليسمح لأشعة الشمس بتغطية المنطقة الريفية بوشاحها الذهبي. وقفت سارة تلتقط أنفاسها، وتزيح خصلات شعرها الرطبة عن وجهها وهي ترقب القرية الصغيرة وقد ابتدأت تلوح لهما عن بعد.

لقد ابتدآ بالمسير منذ أكثر من ساعة. وإذا كانت تلك القرية هدفهما، فما زال أمامهما مسافة لا بأس بها. لقد ابتدأ السير الآن على طول الطريق الذي هو واحد من عدة طرق عبر سلسلة الجبال التي تفصل فرنسا عن أسبانيا. ومع أن جيمس قد حاول عدة مرات أن يجر السيارة إلى الطريق العام، طالباً المعونة، فإن واحدة من السيارات المارة لم تقف ملبية.

جيمس.. ومر هذا الاسم مخترقاً الحاجز الذي أقامته في نفسها أثناء ليلة طويلة لم تذق فيها النوم. واستدارت تنظر إليه وقد عاد إليها مرة أخرى ذلك الشعور الغريب بالخسارة والوحدة. ونظرت إليه بشعره الأسود وبشرته التي لوحتها الشمس تتألق تحت أشعة الشمس الباهتة.. بدا وسيماً جداً وشعرت بقلبها يخفق بشدة.. شعرت بأن الحواجز الهشة في نفسها قد ابتدأت تتحطم.

لا بد أنه قد شعر بها تراقبه، لأنه استدار وقد بدا في عينيه تعبير قطع منها الأنفاس. ولكن هذا التعبير ما لبث أن اختفى مما جعل البرود يتملكها. وإذا كان لها أن تتعلم

درساً من الخبرة التي اكتسبتها الليلة الماضية، فهو، أن لا تتوقع شيئاً من جيمس ماك أليستر أبداً.

وقال لها بصوت عادي يكتنفه البرود: «هل أنت مستعدة؟» كانا يبدوان كشخصين غريبين ترافقا في الطريق وليس كشخصين جمعتهما سويعات هادئة في السيارة. وشعرت سارة بالغضب في اعماقها وهي تقول: «نعم.» كانت الحدة واضحة في نبرات صوتها كما كان الغضب في لمعان عينيها. ولكن جيمس لم يقل شيئاً برغم أنه نظر إليها متفحصاً. وعضت هي على شفتيها وهي تتجاوزه إلى الأمام، وقد كرهت نفسها لمحاولتها تذكيره بما حدث بينهما، كما كرهته أكثر لرفضه ذلك، لقد كان شعوره وهو يرفض تذكر ذلك. لا ينم عن أية عاطفة أو إحساس.

وهتف بها فجأة: «إنتظري.» بينما يده تمتد لتسحبها إلى الخلف على العشب الخشن الذي يقوم على حافة الطريق. وانتزعت سارة يدها من يده وهي تسأله باختصار دون أن تنظر إليه، لتبقى نظراتها معلقة في الطريق الذي يمتد أمامهما: «ماذا حدث؟»

وأجاب: «أظنني أسمع شيئاً. إنه صوت أقوى من صوت السيارة ربما هي شاحنة. وقد يقبل سائقها أن يقدم لنا يد العون بخلاف ما فعل السائقون الذين مروا بنا.» وألقى عليها نظرة وقد توترت ملامحه وهو يرى كيف كانت تحدق بعينيها إلى الطريق خلفه، ثم قال: «انتظري عندك. لا تركضي في الطريق كما فعلت الليلة الماضية.»

ولم تستطع أن تمنع نفسها من النطق بكلمات سرعان ما

ندمت عليها. إذ قالت: «لا تهتم. فأنا وإن كنت معلمة، إلا أنني مازلت في حاجة إلى استيعاب دروس جديدة. وأنا لا يمكن أن أنسى ما تعلمته الليلة الماضية.»

وبدا الغضب في ملامح جيمس وهو يسمع نبرة التهكم في صوتها، ولكن قبل أن يتفوه بكلمة، لاحت لهما شاحنة تبرز من جوف الضباب متقدمة نحوهما. وخطا جيمس إلى الطريق دون ان ينبس بكلمة وهو يلوح بذراعيه تاركاً سارة تعض على شفتها ندماً على تفوهها بتلك الكلمات الاستفزازية. صحيح أنه لم يرد عليها، ولكن التعبير الغاضب الذي بدا على ملامحه كان أبلغ جواب. وشعرت بقشعريرة باردة وهي تتساءل عما سينتظرها عندما يصبحان وحدهما.

وكان عليها إما أن تقف وإما أن تلحق بجيمس.

توقفت الشاحنة وأنزل سائقها زجاج النافذة وقد بدا عليه الاستياء، لاعتراض جيمس طريقه بهذا الشكل.

أمسك جيمس بذراع سارة يجرها معه نحو الشاحنة وهو يصرخ بها بجفاء: «هيا، اسألي السائق عما إذا كان في إمكانه إيصالنا إلى أقرب بلدة.» ووقف جانباً وقد بان نفاد الصبر على وجهه بينما كانت هي تشرح للسائق حالهما. وأخيراً سألها: «حسناً، ما الذي قاله؟»

فقالت سارة وهي ترد شعرها إلى الخلف: «قال إنه ذاهب إلى القرية فقط، ولكننا نستطيع هناك أن نجد من يوصلنا.»

قال جيمس وهو يفتح باب الشاحنة ويساعدها على الصعود دون أن يخفي نفاد صبره ذاك: «حسناً، يبدو أن

الأمور تتحسن معنا أخيراً.» وانكمشت سارة في مكانها وهي ترى نظرات الاعجاب تنصب من السائق على ساقيها اللتين رفع الهواء عنهما ثوبها أثناء صعودها. فأسرعت تشد التنورة على ركبتيها. وأخيراً، استقرت في مقعدها عندما صعد جيمس وجلس إلى جانبها. وحاولت أن تفسح له المكان ليخفف من التصاقه بها، ولكن المكان كان أضيق من أن يتسع لهم هم الثلاثة. وعندما تحركت بهما الشاحنة، إنزلقت هي نحو جيمس ليتصلب جسدها تلقائياً وهي تلتصق به.

وقال: «ما بك. إنني لن أعضك يا امرأة.»

فقالت: «كلا؟» كان في هذه الكلمة المنفرة التي تفوهت بها حدة لم تقصدها كما أنها لم تخف عليه، فابتسم فجأة وقد التوت شفتاه بمكر بطريقة جعلت قلبها يخفق بعنف.

وأجاب: «كلا، أنا لا أعض. على الأقل ليس بتلك الطريقة!» وألقى عليها نظرة طويلة جعلتها ترتعش، وما لبث أن بدت في عينيه ابتسامة ممزوجة بشيء آخر... بشيء لم يوقف تلك الرعشة من ان تسري في أوصالها. وتابع: «لو كان الوقت مناسباً، لكنت... هذا إذا كنت تفهمين ما أعني:»

هل ما بدا في صوته هو نبرة إغراء وغواية؟ لقد كانت طبعاً كذلك. لقد كان جيمس بعيداً عن السخرية وهو ذلك الرجل الرصين المجرب الذي يعرف تماماً ما يقول. إنه يعلم تماماً تأثير تلميحاته تلك على النساء.

نظرت سارة إليه، ولكن لم يبد عليه الإنزعاج للضيق الذي ظهر عليها وهو يمد ذراعه على مسند المقعد خلفها، لتحتك أصابعه برقبتها. وحاولت هي إبعاد رأسها بسرعة

فاصطدمت بالسائق. وتمتمت تعتذر وقد بان الحنق عليها. وجلست تحدق في الطريق أمامها حتى أنها لم تلق نظرة على جيمس وهو ينحني صوبها قائلاً: «إنك غير مستاءة أليس كذلك يا سارة؟ إنني لم أتصور أن مثل هذه الحركات الصبيانية يمكن أن تصدر عنك.»

فردت عليه بحدة: «إنني غير مستاءة. إن الوحيد الذي تصدر عنه أعمال صبيانية هو أنت. انني لا أريد أن أتجاوب مع عبثك الأحمق هذا الصباح، ولكن هذا لا يعني أنني مستاءة.»

فقال وهو يرفع حاجبيه إلى أن اختفيا تحت شعره الأسود المتناثر على جبينه: «عبث أحمق؟ حسناً، حسناً.»

فقالت: «وماذا يعني هذا؟ إسمع يا جيمس. إذا كنت تريد أن تذكرني بما حدث الليلة الماضية في كل لحظة، فالأفضل أن تراجع عقلك.» وتضرج وجهها وهي تستعيد احداث الليلة الماضية. وعضت شفتها. وتبادلا النظرات لحظة صامتين. وشعرت سارة بقلبها يكف عن الخفقان وهي ترى في عينيه صدى كل ما كانت تفكر به. ليشيح عنها وجهه بعد ذلك فجأة، وهو يقول: «لم أكن أنا من ابتدأ بذلك على كل حال. وأظن أن من الأفضل نسيان ذلك. إذ أن ليس ثمة أحد يحب أن يتذكر على الدوام لحظة مرت وانتهت.»

شعرت برعشة باردة شملت كل أوصالها وانكمشت بجسمها عنه، وقد انتابها الألم بشكل لا يصدق لهذا الوضع بينهما. هل كانت تلك رؤيته لذلك؟ (لحظة مرت وانتهت)؟ لقد قال لها الليلة الماضية انه يرغب بها. ولكن هل كانت تلك هي الحقيقة؟ هل كان كل ما في الأمر أنه

شعر في ذلك الوقت، بالرغبة في امرأة وكانت هي جاهزة أمامه؟

كان الألم الذي شعرت به من الحدة بحيث تسرب إلى كل أنحاء جسدها لدرجة أنه مضت لحظة قبل أن تنتبه إلى أن السائق يتحدث إليها. وأخذت تجيبه عن اسئلته بشأن ما حدث لسيارتهما، وقد ركزت انتباهها عليه ليمكنها أن تتجاهل جيمس الذي كان يجلس صامتاً محدقاً في المناظر الريفية المتتابعة. وبدا على السائق الانتعاش بتأثير تركيز سارة اهتمامها عليه. وأخذ يحتكر الحديث عن طبيعة عمله التي تدفعه إلى التجوال في أنحاء فرنسا. وسرت سارة لكون حديثه لا يتطلب جواباً منها، ذلك أنها لم تكن تشعر برغبة في تبادل الحديث.

وعندما ابتدأت الشاحنة تبطىء من سرعتها على مشارف القرية، إبتسمت للسائق بارتياح دون أن تدرك بأن ابتسامتها كانت اكثر دفئاً من أن تقدم إلى رجل غريب. فقفز هذا من السيارة مادّاً يده إليها يساعدها على النزول، ثم يرفعها بسهولة مظهراً قوته لينزلها ببطء على الأرض.

وقال جيمس وهو يستدير حول السيارة ليقف إلى جانبها وقد بان في نبرات صوته نوع من الجفاء: «عندما تكونين على استعداد، هل لي أن أقترح أن نفتش عن مرآب لنرى من يمكن أن يساعدنا في إصلاح السيارة؟» ولم تعجب لهجته سارة وتجاهلت نظرته الشزراء وهي تعود إلى السائق تكرر شكرها. وابتسم لها الرجل وعيناه تحومان حول قوامها الأهيف بطريقة جعلت سارة تشعر بشيء من عدم الإرتياح. وأسرعت عائدة إلى جيمس لتنظر حولها

بدهشة عندما لم تجد له أثراً... هل تراه ابتلعته الأرض؟

وأخذت تفتش عنه بأنظارها لتراه يعبر الساحة يطوي المسافة بساقيه الطويلتين طياً. وركضت هي في أثره تلحق به ولكنه استمر في سيره برغم مناداتها له عدة مرات لكي يقف.

قالت له عندما لحقت به وهي تزيح شعرها عن وجهها: «لماذا لم تنتظرني؟ لقد أخذت أتساءل أين يمكن أن تكون قد ذهبت؟» ولكنه قال دون أن ينظر إليها وهو مازال يوسع الخطى: «ولماذا أنتظر؟ هل لكي تنتهي لغة العيون بينك وبين روميو ذاك؟» وابتسم باشمئزاز وقد ساد البرود نظراته بعد ما استقرت على وجهها المتضرج، وقال: «إنك مليئة بالمفاجآت ياسارة. إنني لم أتصور قط مبلغ شوقك إلى الرجال الذي جعلك تلتقطينهم أينما سنحت لك الفرصة.»

وقبضت على ذراعه تمنعه من متابعة السير وهي تصرخ به: «شوقي إلى الرجال؟ أنا؟ لماذا؟ إنك... إنك...» وامتلأت عيناها بالثورة وهما تتلقيان نظراته الباردة المليئة بالإزدراء.

وتابعت «كيف تجرؤ على مثل هذا القول؟ ليس لك الحق أبداً في إلقاء هذا الاتهام!»

فألقى إليها من فوق كتفه بنظرة حافلة بالمعاني وهو يقول: «كلا؟ ولكن ذلك هو ما استنتجته من تصرفاتك، من منظر فتاك العاشق ذاك.» ونظرت سارة خلفها ليغوص قلبها بين ضلوعها وهي ترى السائق ما زال واقفاً يراقبها. ربما تصرفت هي مع ذلك الرجل بألفة اكثر مما يجب. ولكن ذلك لا يعطي جيمس الحق في اتهامها بمثل ذلك الشكل.

وقالت له: «لا تكن سخيفاً، لقد كنت فقط أتصرف بالتهذيب المفروض وهذا كل شيء. وعلى كل حال، فله الشكر لمساعدته لنا فقد كان ذلك عملاً طيباً منه.»

وهز جيمس كتفيه وقد ارتخت عضلات ذراعه تحت قبضتها بشكل أزعجها، وهو يقول: «هناك ثمة نوعان من التهذيب، وأنا متأكد من انك تدركين ما اعني يا سارة. على كل حال، إن ما تفعلينه هو من شؤونك الخاصة ولا يؤثر عليّ بأية حال. يمكنك أن تحاولي اجتذاب أي شخص تقابلينه، ولكن ليس في مثل هذا الوقت والمشكلات تضغط علينا. ما زال أمامنا مسألة إصلاح السيارة والعثور على كاترين. ربما في إمكانك محاولة السيطرة على غرائزك إلى أن ننتهي من كل هذه الأمور.»

نظرت إليه وهي تتمنى لو أنها كانت رجلاً، إذن لانهالت بالضرب على ذلك الفك الساخر لتمحو ابتسامة الاحتقار تلك من وجهه. وصرّت سارة على اسنانها ثائرة وهي تشد قبضتيها إلى جانبيها مدركة أن من الخطأ حتى مجرد التفكير في اللجوء إلى القوة مع رجل مثل جيمس ماك أليستر. إنه رجل لا يخضع لأي قانون سوى القانون الذي وضعه لنفسه بنفسه.

وبثورة صامتة، تركت يدها تسقط من ذراعه ومشت خلفه تعبر الساحة وهي تفكر طوال الطريق، كيف ترد عليه بالمثل.. وتوالت عليها صور الانتقام... الشنق، السلق في الزيت، السحل في كل الجهات... الإلقاء في....

وعندما توقف عن السير ظلت هي باقية خلفه. وتصاعدّ الدم إلى وجهها وهي تراه ينظر إليها متأملاً،

وهو يقول: «إنني متأكد من أنك إذا قمت بأية محاولة من تصوراتك هذه، ستنتهين إلى السجن. لهذا، هل لي أن أقترح أن تنسي مسألة تصفية الأمر معي وتحصري تفكيرك في المهمة التي جئنا لأجلها إلى هنا؟» وأشار برأسه إلى مرآب قريب، متجاهلاً شهقة الاستغراب وهي تراه يقرأ كل ما يجول في ذهنها، وتابع: «هل يمكنك أن تشرحي لهم كل شيء عن السيارة ونرى ما إذا كانوا يذهبون لإحضارها للتصليح؟ إننا في حاجة إلى متابعة طريقنا بأسرع وقت ممكن.»

أومأت سارة برأسها وهي تشيح بوجهها عن نظراته التي تدرك كل شيء ثم أسرعت إلى المرآب. كيف أمكنه أن يقرأ ما كانت تفكر فيه؟ لم يكن لديها أية فكرة، إنما يجب أن تكون على حذر وأن لا تبدر منها مثل هذه الغلطة في المستقبل. لقد كانت معه أكثر ضعفاً مما يجب. ولو أنه أدرك ما كان يجول في رأسها في المدة الأخيرة، لكان في ذلك ضياعها.

كان مستنداً بظهره إلى حائط المرآب عندما خرجت إليه. كان واقفاً باسترخاء وهو ينظر شبه مغمض العينين يحميهما من أشعة الشمس. وترددت سارة لحظة، وهي تتمعن في الخطوط القاسية القوية لجانب وجهه، وانعكاس أشعة الشمس على شعره الأسود وسالفيه الفضيين، وإلى سرواله الجينز القطني الخفيف الذي كان يرتديه، وإلى «الكنزة» الصوفية السميكة التي تضخم من مظهره الرجولي. وبدا لعينيها ضخماً قوياً لا يقهر. وفتح عينيه، لترى في أعماقهما

من القلق ما جعل غضبها يتلاشى. وقالت بلطف: «سنجدها يا جيمس.» وتقدمت تقف أمامه وتحدق في وجهه بهدوء وهي تستطرد: «إن كاترين فتاة عاقلة ولن تقوم بأي عمل أحمق.»

فقال: «أحقاً هذا؟» وبدا للحظة وكأنه يلتمس الإطمئنان لهذا، وما لبث أن استقام فجأة في وقفته وهو يدفع بشعره إلى الخلف بنفاد صبر، وهو يقول: «أرجو المعذرة إذا أنا لم أجد في رأيك هذا ما يطمئنني. ومن معرفتي بك حتى الآن عرفت أن حكمك على الأشياء لا يعتد به.»

آذاها تهكمه. ولكن السنين قد علمت سارة كيف تسيطر على مشاعرها الحقيقية. وبادلته نظراته بهدوء لا يكشف عما أحدثته كلماته في نفسها من ألم، وقالت: «ربما الأمر كما تقول. ولكنني أستطيع القول انني أعلم عن نوعية تفكير كاترين مؤخراً، أكثر مما تعلم أنت.»

فقال: «أحقاً؟ إذن أخبريني بالضبط لماذا لم تكتشفي ما كان يدور تحت أنفك في الفندق؟» وابتسم ساخراً وهو يتابع قائلاً: «لو كنت مكانك يا آنسة مارشال، لتساءلت عما إذا كنت أصلح حقاً لتحمل مسؤولية الأولاد. وأنا أشك في أنك تملكين فكرة عما يجول في رؤوسهم. لهذا لا تغتري بنفسك إذ تظنين أن كاترين شأنها مختلف. إنني على كل حال، لا يهمني محاولتك الترفيه عني. وكل ما أريد معرفته هو كم سيأخذ إصلاح السيارة من الوقت، واظنك اتفقت معهم بهذا الشأن.»

فقالت: «بالطبع.» ما كان ليضيرها أن تحتمل تعنيفه هذا الناتج عن الغضب والخوف على ابنته. فقد كانت تعرف رأيه

فيها إذ لم يكن ليحتفظ بهذا سراً عنها. ولكن كل كلمة قاسية كانت تسبب طعنة في قلبها، لماذا؟ لماذا هي تشعر بالألم إذ تفكر في أنه يكرهها بهذا الشكل؟

وقال هو: «إذن، هل لك أن تخبريني بما حدث، إذا لم يكن في ذلك إزعاج لك؟»

تنفست هي بعمق، تاركة جواب تساؤلها ذاك الذي يتردد في ذهنها، يكتنفه الغموض بعد ان شملها شعور غريب بالإرتياح. وقالت: «إنهم سيذهبون لإحضار السيارة بأقرب وقت ممكن. وسيرون مقدار العطل فيها، ومن ثم، يتم إصلاحها حوالي العصر. ولا يمكنهم الإسراع أكثر من ذلك.»

وشد جيمس بقبضته على راحته وهو يشتم قائلاً وقد بان عليه نفاد الصبر: «هذا يؤخرنا كثيراً. لا أظنك حاولت أن تساليهم عما إذا كان في إمكاننا أن نستأجر سيارة منهم؟»

فقالت: «إنك مخطىء في هذا، لأنني سألتهم فعلاً.. ولكن من المؤسف أن القرية أصغر من أن يتيسر فيها تأجير السيارات. ويبدو أننا سنبقى هنا إلى حين إصلاح السيارة.»

فقال: «هذا ما يبدو.» وابتعد عن الجدار يتطلع في أنحاء الساحة وهو يقول: «يبدو أن غباءك ما زال يسبب لنا المشكلات، أليس كذلك؟»

وتجمعت الدموع في عينيها، وأشاحت بوجهها لكي لا يراها. وهي تقول: «أظن أن قولي بانني آسفة، لن يجدي شيئاً.»

فقال: «طبعاً لا. إنه لن ينتج شيئاً. دعينا فقط نرجو

وندعو أن ينتهي إصلاح السيارة عند العصر كما قالوا، ليمكننا على الأقل أن ننتهي من هذه المهمة هذا المساء.»

رمقها بنظرة قاسية وهو يشيح بوجهه عنها. ولم تكن رؤيته لدموعها التي تبلل أهدابها لتخفف من نقمته، هذا إذا لم تكن قد زادت من غضبه. وقال: «صدقيني يا سارة، سيكون من دواعي سروري عندما تنتهي هذه القضية، أن نتمكن، أنا وأنت، من أن يذهب كل منا في طريقه.»

ماذا كان يمكنها أن تقول؟ هل تقول إنها تخاف من اللحظة التي سيفترقان فيها؟ لو أنها قالت له هذا ربما كان سيضحك عليها ليتهمها بعد ذاك، بأسوأ مما سبق واتهمها به من قبل.

كان الشعور بالكرامة هو ما جعلها تتمالك نفسها، الكرامة والعزم على ألا تسمح له بأن يعرف شعورها ذاك. قالت: «إن شعوري لا يختلف عن شعورك. إذ من الواضح أن ليس ثمة اهتمامات مشتركة تجمع بيننا.»

فقال: «كلا؟ أوه، ليس الأمر تماماً كما تقولين.» ونظر إلى وجهها طويلاً بطريقة جعلت سارة تعلم أنه يريد معاقبتها.. ولم تستطع أن تمنع رجفة سرت في أوصالها. وفجأة، استدارت عائدة تعبر الساحة لا تكاد تشعر بما تفعل أو إلى أين تذهب.. كل ما كانت تعرفه أنها كانت تريد أن تبتعد عن جيمس ماك أليستر قبل أن ترتكب حماقة كبرى وتدعه يعرف إلى أي مدى تشعر بالشوق إلى أن يحتضنها مرة أخرى.

تألقت الشمس بين أوراق الأشجار ملقية ظلالاً مرقطة على الأرض الغبراء. واستندت سارة بظهرها إلى الكرسي

وهي ترتشف قهوتها المبردة، وترقب جيمس الذي كان منحنياً ليأخذ دوره في لعبة الكرة البطيئة. وتصاعد الهتاف والتصفيق عندما نجح في نيل أعلى علامة للفوز. ودار برأسه يبتسم لبقية الرجال ثم يهز أيدي البعض منهم، ثم عاد ليجلس إلى الطاولة مستقراً على كرسيه. وقد بدا عليه الإسترخاء بشكل لم تره سارة عليه من قبل.

وقالت: «فهمت من ذلك أنك أنت الفائز.» ورشفت القهوة قبل أن تضع الكوب على الطاولة. هز رأسه وهو يأخذ كوبه ويرشف منه قبل أن يعيده إلى الطاولة. وقال: «لم يكن لي حظ في البداية بين أولئك الرجال المتمرسين. ولكن ضربة الحظ جاءت في النهاية.»

وألقت سارة نظرة إلى الساحة حيث كان الرجال يجمعون الكرات ثم يضعونها على الطاولة مرة أخرى، بينما كانوا هم أيضاً يمضون تلك الأمسية يستمتعون بتناول القهوة والحديث.

قالت له: «لا أظن ذلك، فقد كرموك بأن دعوك للانضمام إليهم في المركز الأول. مع أن الفرنسيين لا يألفون الغرباء عادة.» وعادت تنظر إليه في كرسيه الخشبي المستقيم وهي تقول: «يبدو أنك ماهر في التصرف وكأنك في منزلك. أليس كذلك؟»

فقال: «هذا يعود إلى قضائي سنوات كثيرة في الأسفار.»

ربما شعر باهتمامها به، إذ أنه ابتسم ووضع كوبه ثم أخذ يتمطى.

بللت سارة شفتيها اللتين جفتا فجأة، حاملة نفسها على التركيز على المحادثة لتمنع ذهنها من التفكير في أشياء قد لا تحصل. وقالت: «لقد قلت إنك تسافر كثيراً ولكنني لم أعرف

السبب بعد. لقد أخبرتني كاترين أنك مهندس وقد رأيت بنفسي نموذجاً من عملك. وكان جيداً.» واحمر وجهها فجأة وهي تبدو وكأنها كانت تهتم بدراسة أعماله اكثر من اللازم.

على كل حال لم يبد أنه حمل كلامها المعنى الذي خافت أن يظنه.

وقال: «هذا صحيح. ولكنني في السنوات الأخيرة، عملت لوكالة شركة وراء البحار للتطوير، مقدماً نصائح عن بناء البيوت القليلة التكلفة.» وهز كتفيه وهو ينظر إلى الساحة. ومع ذلك شعرت بأنه بعيد عنها أميالاً، وهو يتابع قائلاً: «لقد كان عملاً مزعجاً أحياناً عندما يكون الفقر محدقاً بالمرء في بعض البلدان. لقد كنت محظوظاً في عملي وانتجت الكثير من المال مما أمكنني من القيام بالمشاريع التي توكل إليّ.»

فقالت: «وهل ستستمر في ذلك عندما نعثر على كاترين؟»

فقال: «كلا. لقد سبق وفكرت في أنني عملت ما فيه الكفاية وقد حان الوقت ليتسلم غيري العمل. لا تفهميني خطأ. فقد نلت من الخبرة بقدر ما بذلت من جهد. ولكن، عليّ أن انتقل بحياتي إلى فترة أخرى. هذا ما صممت عليه الآن. أن انتقل إلى طور آخر وأفكر بالمستقبل.»

كانا يتبادلان أحاديث عادية متكلفة، يمضيان بذلك الوقت إلى أن ينتهي إصلاح السيارة. وفجأة، شعرت سارة بالحزن يغمر نفسها وهي تشعر بأنها لن تكون جزءاً من ذلك المستقبل الذي يتحدث عنه. وهزها هذا الشعور فانتصبت واقفة بسرعة جعلتها تصطدم بالطاولة مما جعل كوب القهوة ينقلب على صحنه وهي تقول متلعثمة: «إنني.. إنني

سأذهب للإستعلام عما إذا كانت السيارة جاهزة.»

وتحركت لتبتعد عندما شعرت بأصابعه تقبض على معصمها. وعلا نبضها تحت أصابعه وعرفت هي أنه شعر بذلك. ولكن ذلك كان خارجاً عن إرادتها.

وقال: «هل تهربين يا سارة؟ لا بد أن الحديث عن المستقبل قد ضايقك؟»

فأطلقت ضحكة صغيرة جافة ساعدت في كشف شعورها بدلاً من أن تكتمه، وقالت: «كلا بالطبع. إنني فقط فكرت في استطلاع أمر السيارة. هل هذه مشكلة؟»

فقال: «كلا. المشكلة الحقيقية هي مشكلتك أنت، وهي أنك لا تودين مواجهة نوع المستقبل الذي ينتظرك.»

فقالت: «لا أتذكر أنني ناقشت معك خطط مستقبلي يا جيمس. ما كنا نتحدث عنه كان مستقبلك أنت. أليس كذلك؟»

فقال: «نعم هذا صحيح. ولكن، أليس علينا نحن الاثنين أن نتابع طريقينا عند الإنتهاء من هذه المشكلة؟»

وترك معصمها وهو يتابع «بطبيعة الحال، سأنقل كاترين من مدرستك بعد الذي حدث. وهكذا إذا افترقنا يا سارة فقد لا نعود إلى الاجتماع مرة أخرى.»

فقالت وهي تستدير مبتعدة: «حسناً، إني أرى ذلك اليوم بطيئاً جداً في القدوم.» كانت تريد أن تعتقد أن هذه هي الحقيقة. ولكنها في أعماق نفسها كانت تشعر أنها تكذب. فقد كان شعورها بأنها لن تراه مرة أخرى يدفعها إلى الرغبة في الجلوس والبكاء.

الفصل التاسع

«ماذا تعنين؟ ان السيارة لن تكون جاهزة اليوم؟ اللعنة على ذلك يا سارة. إننا في حاجة إلى تلك السيارة الآن وليس غداً.»

كانت الثورة تتفجر في كلمات جيمس. وتنهدت سارة وهي تتمنى لو لم تكن هي التي نقلت إليه هذا الخبر السيىء. وفي الزمن القديم كان الرسول الذي ينقل الأخبار السيئة غالباً ما يقتل لما يسببه من آلام. وهي الآن تشعر معهم نوعاً ما! ذلك أن النظر في وجه جيمس كان كافياً لأن يردي أي رجل ميتاً في مكانه دون اللجوء إلى أية وسيلة أخرى.

قالت: «أعرف ذلك. ولكنهم وجدوا أنهم في حاجة إلى قطعة غيار كان عليهم أن يرسلوا من يشتريها من مدينة لاشون.»

قال: «إنني لا أصدق ذلك. إنني حقاً لا أعتقد أن هذا قد حدث.» وابتعد عنها عدة خطوات وقد بان التوتر في كل جزء من جسمه، ثم استدار يقول: «لماذا لا يوصلوننا إلى «لاشون»؟ بهذا يمكننا استئجار سيارة نتابع بها رحلتنا.»

كانت هذه فكرة صائبة تمنت سارة، بإخلاص، لو كانت قد فكرت فيها من قبل. وهزت رأسها وهي تتجنب نظراته الحادة، منتظرة أن ينهال سخطه عليها كالعادة. وقالت: «إن ذلك الرجل قد ذهب وفات الأوان لنذهب معه.»

أبدى هو مقدرة فائقة في تمالك أعصابه، ليستدير

مبتعداً عائداً عبر الساحة، تاركاً إياها تجر نفسها خلفه شاعرة بالتعاسة. لقد كان الجو متوتراً بينهما طيلة بعد الظهر، وهو الآن ينحدر نحو الأسوأ. كان واضحاً أن جيمس لا يريد أن يمضي أي وقت آخر بصحبتها أكثر من الوقت الذي أرغم عليه.. وقد بدا الآن هذا أكثر مما كان متوقعاً.

توقف خارج المقهى الذي تناولا فيه طعام الغداء، ثم استدار يحدّق في انحاء الساحة الهادئة التي يتفرع منها عدة شوارع. وقال: «أظن أن علينا تمضية الليلة هنا، فهل لديك فكرة عن نزل يمكننا تمضية الليلة فيه؟»

هزت سارة رأسها وآخر خيوط الشمس ترسل شعاعها الذهبي على شعرها البني الفاتح، وقالت: «كلا. ولكنني سأدخل إلى المقهى وأسأل.»

قال: «نعم، إفعلي ذلك وفي هذه الأثناء إسألي ان كان يوجد هاتف يمكنني استعماله. فقد أجد شركة يمكنها أن ترسل إليّ سيارة. يا للعنة.. ليس في امكاني أن أحتمل شيئاً أسوأ مما حصل حتى الآن.»

لم تستطع أن تفعل شيئاً أكثر من الاعتذار مرة أخرى. وفي الواقع، لقد قدمت من الاعتذارات مؤخراً ما فيه الكفاية ليطيل عمرها! وهرعت إلى الداخل دون كلمة أخرى، وغاص قلبها بين ضلوعها عندما أخبرتها صاحبة المقهى أنه ليس فقط لا يوجد نزل في القرية بل أن العاصفة الأخيرة قد أتلفت خطوط الهاتف في المنطقة وما زالت معطلة. وأخذت تتصور ردة الفعل عند جيمس لدى سماعه هذه الأخبار.

«حسناً؟» قال ذلك بعد أن تبعها إلى الداخل يستند إلى المكتب عاقداً ذراعيه فوق صدره في انتظار سماع الأخبار الجيدة. وتنفست سارة بحدة ثم استعدت لتخبره بالأمر عندما تابعت المرأة حديثها بلهفة. فاحمر وجهها وهزت رأسها نفياً لتقفز جفلة عندما أمسك جيمس بذراعها قائلاً: «ما الذي قالته؟ هل فهمت شيئاً عن غرفة موجودة عندها؟»

هزت رأسها نفياً وهي تحوّل نظراتها عن عينيه، قائلة: «كلا.»

قال مبتسماً: «لعلك تملكني شعور بأنك تكذبين يا حلوتي؟» والتوت شفتاه معاتباً وهو يحوّل انتباهه إلى المرأة وراء المكتب ويقول بلهجة بطيئة كشخص لم يتعود التكلم بلغة غريبة عنه. وحدقت سارة أمامها بنفور دون أن تحاول مساعدته وهو يتعثر في أسئلته التي كان يلفظها ببطء. لا يهم ماكان يسأل عنه وما كان الجواب فقد كانت المسألة كلها مستحيلة!

«إذن فقد كنت تكذبين يا سارة؟ إنك تدهشينني.»

وألقى إلى صاحبة المقهى بابتسامة ساحرة وهو يمسك بذراع سارة يقودها خارجاً إلى الشارع.

قالت وهي تنظر إليه وتهزه: «دعني أذهب.» وشعرت بالكراهية للسخرية البادية في وجهه المتعجرف، وهي تتابع: «نعم. لقد كذبت عليك ولكن هذا لا يغير من وضعنا، أليس كذلك؟ هناك غرفة واحدة فقط فوق المقهى، فإذا كنت تتصور أنني سأشاركك إياها فأنت مجنون!»

فقال: «وما الذي تعتزمين عمله إذن؟ هل ستمضين الليل هنا؟» وتصنع جيمس الارتجاف وهو ينظر إلى السماء

قائلاً: «تذكري البرد في الليل يا سارة. لا أظنك ستجدين الوضع مريحاً أبداً. ولكن إذا كان هذا ما تريدينه فمن أكون أنا لكي يحق لي الاعتراض؟»

فقالت: «هل ستفعل ذلك حقاً؟ أتتركني هنا في الخارج وحدي كل الليل بينما أنت مرتاح في تلك الغرفة؟»

فقال: «وماذا تقترحين غير ذلك؟ هل يتوجب علي أن أترك لك الغرفة كلها وأمضي أنا الليل هنا بدلاً منك؟» وهز رأسه بسخرية متابعاً «إستيقظي ياسارة. إننا في التسعينات من هذا القرن. وهو زمن المساواة بين الجنسين. إنني لا أشعر بأية ضرورة لعمل ما لا يرضيك فيما لو اخترت مشاركتي الغرفة. لقد أمضينا الليلة الماضية معاً في السيارة، فلماذا تكون هذه الليلة مختلفة عنها؟»

وتساءلت بسخرية، حقاً لماذا؟ مع أن المشاركة في غرفة واحدة، هي أكثر استجلاباً للمودة من الاضطرار إلى الجلوس في السيارة... فقد حدث بينهما في السيارة ما حدث، فكيف بهما في غرفة واحدة؟

واستدارت سارة مبتعدة متجاهلة تلويح جيمس الساخر لها بيده وهو يعود داخلاً إلى المقهى. ومشت هي في الشارع الهادىء حتى وصلت إلى الغابة التي تنتهي عندها القرية. وكانت الرياح قد ابتدأت تهب مرة أخرى كما سبق وحدث في الليلة الماضية ناشرة البرودة في الجو. ولفت ذراعيها حولها مدخلة ذراعيها في كميّ «الكنزة» وهي تقف مراقبة الأشجار التي كانت تتمايل مع الريح. ثم استدارت تتطلع إلى المقهى. متسائلة عما يمكنها أن تفعل لتمضي

هذه الليلة. بصراحة كان التفكير بقضائها في الخارج فكرة مفزعة، ولكن ما هو البديل لذلك؟ الموافقة على مشاركة الغرفة مع جيمس؟ ولا سبيل إلى ذلك!

كانت الغرفة هادئة ومظلمة إلا من نور خافت يبعثه مصباح صغير مظلل. واستلقت سارة على السرير تحدق في السقف بعينين جاحظتين، وهي تسمع صوت هطول المطر في الخارج. وكان تساقط قطرات المطر على زجاج النافذة يخترق الصمت. كانت تشعر بالراحة والدفء. ولكنها لم تستطع النوم. ولم يكن لأرقها هذا أية صلة بالخوف من عودة الكوابيس. هذه المرة كان الأمر يتعلق بجيمس.

نفضت عنها الأغطية ومشت إلى النافذة تمسح براحتها الضباب الذي أحدثته حرارة أنفاسها على زجاجها. لم يكن ثمة ما يستحق الرؤية من النافذة عدا عن عدة مصابيح متفرقة في الساحة. ولكن نظراتها لم تكن تنصب عليها وإنما على شيء أقرب. على سيكارة مشتعلة يدخنها شخص كان يجلس إلى إحدى الطاولات.

وامتلأت نفسها بالغضب والشعور بالذنب معاً. وتنهدت وهي تعود لتضع على جسمها معطفها المنزلي. كان يجب أن تدرك أن رجلاً مستهتراً لا بد كان يضمر شيئاً عندما قبل فجأة بأن تنفرد هي بالغرفة. لقد عرفت غايته تماماً. ولكنها لا تدري كيف سمحت له بأن يجعلها تطمئن إليه بعد عشاء طيب وكأسين من الشراب المحلي القوي لقد شكرته لشهامته في تقديم الغرفة لها. حسناً لقد كانت شهادة ملعونة إذ أنه كان يعلم أنها لا بد أن يخضعها الشعور القوي بالذنب. تباً لهذا الرجل الماكر!

تركت الغرفة لتنزل السلم بهدوء. وتمتمت من بين أسنانها عندما رن الجرس فجأة وهي تسحب مزلاج الباب ليعكر السكون حولها. ونظرت من فوق كتفها لتطمئن إلى عدم إزعاجها أحداً، ثم اندفعت تحت المطر وهي ترتجف إذ سارت في شبه بحيرة من الماء عند أسفل السلم.

وابتسم لها جيمس وهو يقول: «هم. م. م... لقد أخذ الأمر منك وقتاً أطول مما توقعت يا حلوتي.» كان مستنداً إلى الخلف في كرسيه وقد التصق شعره الأسود برأسه وبلل المطر قميصه ليلتصق بجسده مبرزاً تفاصيله. وتلاشى غضب سارة لتقول: «لو لم أكن خائفة من أن تأتي السيدة سانت كلير لإدخالك، لكنت سعيدة بأن أتركك هنا طيلة الليل. إنني فقط لم أشأ أن أسبب لها أية مضايقات أخرى بعد تلطفها بتقديم الغرفة لنا.»

فقال: «كان يجب أن أدرك ذلك بالطبع. وسأعتبر أنني تلقيت العقاب المناسب على تصوري أشياء أخرى. والآن هل ندخل؟» ووقف ثم مشى إلى الباب يمسكه لكي تتقدمه في الدخول وقد بدت عليه السخرية، جاعلاً سارة تفكر بحسرة في مدى رقة قلبها.

نظرت إليه وهو يدخل قائلة: «لقد كنت تعلم أن قلبي لن يسمح لي بإبقائك في الخارج طيلة الليل. أليس كذلك؟ ولهذا قدمت إلي الغرفة.»

فهز كتفيه بخفة وهو يغلق الباب خلفه قائلاً: «دعينا نفترض أنها كانت مجازفة محسوبة.» وابتسم فجأة وقد ضحكت عيناه وهو يستطرد «إنني مسرور لانتهاء ذلك. لو مضت عدة دقائق أخرى عليّ في الخارج، لكنت حملت نفسي

على الاستسلام ووضعتها تحت رحمتك. إنني شبه متجمد من البرد.» ومر بأصابعه على وجنتها يشعرها بمقدار ما يشعر به من البرد. وارتجفت سارة وارتدّت حالاً إلى الخلف وقد كرهت الطريقة التي أخذ فيها قلبها يدق بجنون لأول لمسة من يده. وقالت: «ليس عليك أن تلوم سوى نفسك لأنك أنت الذي قدمت العرض ولم أطلب أنا ذلك منك.»

فقال: «طبعاً إنني أعرف جيداً أنك ما كنت لتخضعي دون أن تقومي بكل أنواع المضايقات. فلاحت لي هذه الطريقة وهي الأسهل لتجنب كل ذلك. ربما كان ما سأقوله لك يا سارة، نظرية رجعية. ولكن في رأيي أن المرأة تحتاج إلى حماية ولا يمكن أن أتركك وحدك في الخارج.»

استدار مبتعداً بعد ذلك التصريح المتعجرف، يصعد السلم بساقيه الطويلتين. وتبعته سارة ببطء وهي تتساءل لماذا انتابها ذلك الشعور بالذنب؟ لقد كان جايمس هو الذي نصب لها هذا الشرك. ومع ذلك فقد شعرت بأنها كانت على خطأ حين اقترحت عليه أن يتركها هي في الخارج.

ودخلت غرفة النوم لتقف كالميتة وقد هرب الدم من وجهها وهي تراه واقفاً إلى جانب السرير المزدوج القديم الطراز. وبنظرة سريعة، شملته بأنظارها من شعره الأسود إلى قدميه الحسنتي التكوين قبل أن تستدير مبتعدة وهي تتمتم معتذرة.

ونظر هو إليها طويلاً ثم تقدم قائلاً: «لقد وعدتك يا سارة، أن لا أرغمك على شيء لا تريدينه وسأحفظ وعدي هذا.»

فقالت بمرارة مفاجئة: «الرجال يأخذون دوماً. تلك هي طبيعتهم.»

فهز رأسه قائلاً: «هذا ليس صحيحاً. لا تحكمي على كل الرجال من خلال خبرة سيئة مع واحد منهم. لا بد أن صدمة عنيفة قد أصابتك في الماضي غيرت من نظرتك إلى الرجال جميعاً. إنني لا أدري من هو وكيف حدث ذلك، ولكنني انبهك إلى أنك إذا بقيت تنظرين إلى الحياة بمثل هذا المنظار الأسود، فهذا معناه أن غريمك ذاك قد انتصر نهائياً.»

لم يكن قد طرق مثل هذا الموضوع من قبل. وشعرت وكأن غشاوة قد انزاحت عن عيينها. لقد اعاقها الماضي زمناً طويلاً. أمضت حياتها خائفة. إنها لن تستطيع أبداً تغيير الماضي، ولكن عليها أن تضعه وراء ظهرها.

واستطرد هو: «خذي واعطي يا سارة. هذا ما ينبغي أن يكون للحصول على السعادة.»

الفصل العاشر

كانت البرودة منعشة بين الأشجار وقد عبق جو الصباح بالشذا المنبعث من أشجار الصنوبر.

أسندت سارة رأسها إلى جذع شجرة صنوبر سامقة. وهي تحفر في التراب الرطب بأظافرها. هل ما زال جيمس نائماً؟ أم انه قد استيقظ وهو يبحث عنها الآن؟ واستغرقها التفكير في ما حدث بينهما الليلة الماضية. متصورة الاجتماع المقبل بينهما وما يمكن أن يقوله الواحد منهما للآخر على ضوء البهجة التي أصبحت تشملهما معاً. وذلك على ضوء النهار.

إنها لم تندم على ما حدث بينهما. وهذا ما أدهشها. وفكرت في هذا لحظة، ثم ما لبثت أن انفجرت ضاحكة بصوت عال وقد شعرت بالحرية لأول مرة منذ سنوات. لقد منحت نفسها إلى جيمس وبذلك حطمت كل القيود التي كانت تعيقها. والآن ها هي ذي حياتها تنبسط أمامها لا تعترضها أية مشكلات عاطفية. لقد أصبحت حرة.. حرة تفعل ما تشاء، وتذهب إلى أي مكان تريد. حرة في أن تحب جيمس ماك اليستر من كل قلبها. حرة حتى في أن تعود إليه وتخبره بذلك.

وقفت على قدميها وهي تمسح التراب العالق على يديها. وتوقفت حين سمعت شخصاً قادماً نحوها. هل كانت الحاسة السادسة هي التي أخبرتها مسبقاً عمن يكون؟ أم

أنها قوة الحب التي كانت أكبر مما تصورت؟ وابتسمت لتخيلاتها الحمقاء، وكست البهجة وجهها وهي تقف في انتظاره.

قال: «أنت هنا إذن؟ لقد حزمت أمتعتنا. وإذا كنت تريدين أن تأكلي شيئاً، فهيا؟»

استدار عائداً تاركاً سارة تتطلع في أثره وقد انتابتها صدمة. إنها لم تتوقع منه كلمات شاعرية عندما يتلاقيان، ولكنها كذلك لم تكن تتصور كل هذا الجفاء. وركضت خلفه وأمسكت بذراعه عندما لم يحاول أن يبطىء من خطواته. وقالت: «جيمس... ما هذا؟ لماذا تتصرف بهذا الشكل بعد أن... بعد الليلة الماضية؟» كانت وجنتاها متضرجتين، ولكنها رفضت أن تصدق أنه يمكن أن يتصرف بهذا الشكل دون سبب.

قال: «الليلة الماضية كانت الليلة الماضية. أما الآن فكل ما أريده هو أن أجد ابنتي. هل فهمت؟»

قالت: «كلا. إنني لا أفهم لماذا تتصرف هكذا. ألم تعن الليلة الماضية أي شيء لك؟ أبداً؟»

هزت ذراعه غارزة أظافرها خلال قميصه القطني الذي كان يرتديه دون أن تعي ذلك. وقد أحرقها الخوف وهي تنظر في وجهه الصواني الملامح.

قال هو: «طبعاً كان ذلك. وقد استمتعت كثيراً وأشكرك على ذلك يا سارة. كان اغفالاً مني ان لم أشكرك قبل الآن.» وشحب وجهها وهي تلمس السخرية الباردة في صوته. ولكنها بقيت حيث هي تستمد القوة من اليأس.

قالت: «إنني لا أريد شكراً. ما الذي تقوله يا جيمس؟ هل

أن ما حصل في الأمس لا يعني لديك سوى لحظات متعة عابرة؟ إنني لا أصدقك.»

قال: «ما تصدقينه إنما هو راجع لك يا حلوتي. ولكن نصيحتي إليك هي أن لا تتمعني كثيراً في الأشياء يا سارة. فهو ليس بالحدث الذي يهز الأرض وذلك على الرغم من الكلام الفارغ الذي تقرأينه في الروايات العاطفية.»

قالت: «هل هذا كل ما يعني بالنسبة إليك؟ مجرد علاقة قصيرة مسرّة؟» كان من الصعب عليها أن تخفي الألم الذي كان يمزق قلبها. ولكنها لم تكن بها حاجة للإهتمام بذلك إذ أنه رمقها بنظرة ضجرة وهو يقول: «ماذا غير ذلك؟ إذا كنت تفكرين بتكويم العتاب فوق رأسي الآن لأنك تشعرين بالذنب، فلا تنسي، إذن أنني لم أرغمك على شيء لا تريدينه. كوني ناضجة يا سارة واعتبري أن الليلة الماضية ما كانت سوى درس يزيد في تجاربك.»

«هل تعتقد ذلك حقاً؟» وأطلقت ضحكة حادة تسرّب صداها خلال الأشجار.

قال: «طبعاً، إلا إذا كان عندك سبب آخر تعترفين لي به.» ونظر في ساعة يده وقد بدا نفاد الصبر في عينيه.

قالت: «لا أدري ماذا تقصد.»

قال: «كلا؟ لقد خطر لي أمس أن ملاطفتك لي ما هي إلا رشوة تقدمينها إليّ لكي لا أنفذ تهديدي لك بالنسبة إلى وظيفتك.»

قالت: «كلا.. لم يكن الأمر كذلك قط. لقد كان السبب هو... هو...» ما الذي تستطيع قوله؟ كيف تقول له إنها تحبه في الوقت الذي كان هذا آخر ما يرغب في سماعه؟

ابتسم هو ببرود، وقد خلت عيناه من أي أثر للدفء: «هل رأيت أنك تجدين صعوبة في الإجابة عن هذا؟ أظن أن من الأفضل أن نترك المناقشة في هذا إلى ما بعد. فنحن إنما نضيع الوقت ليس إلا.»

استدار عائداً تاركاً سارة وقد تجمعت الدموع في عينيها. لقد كانت الليلة الماضية رائعة ولكنها لم تعن شيئاً بالنسبة إلى جيمس. لشد ما كانت حمقاء غبية إذ تصورت أي شيء آخر.

تبعته شبه يائسة وهي تمسح الدموع التي كانت تغسل وجنتيها قبل أن تصل إلى الشارع. والآن، وقد تحطمت كل آمالها، لم يبق لها سوى الكرامة تتعلق بها في الساعات القادمة إلى حين تفترق عن جيمس نهائياً. واستنفد الوصول إلى المقهى حيث كان يقف، كل قواها... ولكنها تمالكت نفسها رافضة أن تدعه يلحظ مقدار الألم الذي تعانيه.

قال: «حسناً، سأدخل أنا المقهى وأسدد الحساب بينما تذهبين أنت إلى المرآب لمعرفة ما إذا كانت السيارة جاهزة. ولا تسمحي لهم بأن يتملصوا من وعدهم يا سارة. أفهميهم بأننا نريدها الآن دون أي تأخير.»

كان صوته قاسياً، وابتسمت هي بمرارة، وهي ترفع عينيها إليه قائلة: «لا تقلق يا جيمس. إنني أشعر بنفس اللهفة التي تشعر بها أنت إلى الرحيل!»

ومض شيء في عينيه... لكنه سرعان ما تلاشى قبل أن تجد هي الوقت لتفكر في المسبّب لذلك. وقال: «حسناً، كلما أسرعنا في العثور على كاترين، كان ذلك أجدى بأن ننتهي من هذه المشكلات.»

فكرت سارة وقد اعتصر قلبها الحزن، بأنها إحدى هذه المشكلات التي سيتخلص منها. ولكنها لم تقل شيئاً. وما الفائدة من ذلك؟ لقد أوضح وجهة نظره تماماً هذا الصباح مما جعلها لا تشك في شعوره.

أخذت سارة تنظر من نافذة السيارة، إلى المناظر الريفية التي كانت تمر بها، دون أن تلحظ جمالها. كانت تشعر بالألم والحزن يجمدان جسدها حتى لم تعد تجد اهتماماً بأي شيء في العالم. لم يتكلم جيمس كثيراً منذ قاما بإحضار السيارة، وقد بدا عليه الاهتمام في انجاز آخر مراحل القضية التي جاءا من أجلها. ولم تحاول هي من ناحيتها، أن تجره إلى الحديث. لم يبق لدى الواحد منهما ما يقوله للآخر. لم يبق سوى ذكريات الليلة الماضية، ولم تكن تريد أن تتذكر ذلك الآن.

قال: «أظن أننا إذا ذهبنا إلى «لاشون» رأساً، فسيكون ذلك أفضل من اتباع الخارطة. فلقد ضيعنا كثيراً من الوقت بحيث أصبح ذلك غير مهم.»

قالت بصوت خفيض لا يفصح عما تعاني: «مهما كان الذي تظن، فهو الأفضل.»

رمقها بنظرة جانبية شبه ضجرة، ثم عاد بانتباهه إلى الطريق ليتفادى شاحنة كانت قادمة، وقال: «يبدو أن ذلك هو الأفضل. ألا تظنين ذلك؟»

قالت: «طبعاً.» لم تكن تريد أن تتحدث معه. لم تكن تريد أن تستمر في سماع ذلك الصوت الذي بقي الليلة الماضية، يتردد في مسامعها إلى أن دفعها الإرهاق إلى الاستغراق في النوم.

قال: «اسمعي يا سارة. إذا كنت ما زلت متوترة مما حدث الليلة الماضية...»

قالت: «إنني لا أريد التحدث في هذا الموضوع. أفهمت؟ إنني أريد أن أنسى كل ما حدث، أن أنسى كم كنت حمقاء مجنونة.»

استدارت تنظر من النافذة بينما كانا يدخلان المدينة. وهي تحاول حبس دموعها. ورأت صورتها في زجاج النافذة المغبر فابتسمت بمرارة ساخرة مما رأت. كانت قد تركت شعرها مسترسلاً على كتفيها هذا الصباح لكي يراها جيمس، حين يستيقظ من النوم، بأجمل مظهر. ونفس السبب جعلها ترتدي بدلة تبرز جمال أنوثتها. يا للسخرية في أن يكون هذا اليوم هو الوحيد الذي اختارت فيه أن تبدو على أقصى ما تكون من الجاذبية. لم يعد يهمه الآن أي شيء ترتديه ما دام قد ابتدأ ينفيها من ذهنه نهائياً.

جاءها صوته فجأة: «هذا حسن بالنسبة إليّ.» وأدهشها الغضب الذي بدا في صوته واستدارت تنظر إليه، متأملة فمه الصارم وحاجبيه المقطبين. ما الذي جعله غاضباً بهذا الشكل بينما هي الضحية الحمقاء؟

قالت: «ماذا جرى يا جيمس؟ هل أزعجك أن... أوه!» لقد شهقت حين توقف فجأة وهو يميل بالسيارة. وأغمضت سارة عينيها وقد توقف قلبها عن الخفقان، لتفتحهما مرة أخرى في الوقت الذي كان يدفع فيه الباب ليفتحه. وهتفت: «ما هذا يا جيمس؟»

«كاترين» نطق بالإسم من بين شفتيه اللتين كان الغضب قد قلصهما.. وقد نظر إلى حيث كانت سارة تجلس

مصعوقة، وهو يهتف: «ألم تريها واقفة هناك تشير بإبهامها تطلب من ينقلها بسيارته؟ لا أدري ماذا حصل، ولكن إذا كان ذلك الشخص قد سبب لها أي أذى...» وقطع تهديده وهو يوسع الخطى راجعاً في الطريق.

فكت سارة حزام الأمان ببطء، وأخذت ساقاها ترتجفان وهي تخرج من السيارة لتتطلع إلى شخصين واقفين على جانب الطريق. لقد أقبلت النهاية هكذا فجأة بحيث لم تستطع أن تفقه ما يجري. ولكن، عندما عاد جيمس يقود ابنته إلى السيارة، عندها فقط، استطاعت أن تتمالك نفسها، لتبتسم في وجه كاترين المصعوقة الملامح، ابتسامة باهتة.

شهقت الفتاة وهي تقول: «الآنسة مارشال؟ ماذا تفعلين هنا؟ هل أحضرك أبي معه؟»

أجابت: «لقد فعل ذلك حقاً، ولكن هذا غير مهم الآن. المهم هو أنك بخير.»

أومأت الفتاة برأسها وقد بدا التعب والجهد في عينيها وهي تقول: «نعم... فقط. إنني... إنني آسفة. آسفة حقاً. إنني أعرف أنني سببت لكم جميعاً الكثير من المشكلات.»

قال جيمس: «لقد فعلت ذلك حقاً. وعندما نجلس معاً حيث نستطيع أن نتحدث، فإنني أريد منك أن تحدثيني بكل شيء يا كاترين.. هل فهمت؟ أريد أن تحدثيني بكل التفاصيل.» وحدق في ابنته متجاهلاً نظرة التوسل التي رمقته بها، واستمر يقول: «إنني لا أصدق أن ابنة لي يمكن أن تكون من الحماقة بحيث تقوم بمثل هذا التصرف الشائن.» وانهمرت الدموع على وجنتي الفتاة. وبدافع غريزي خطت سارة إلى الأمام لتحيط كتفي الفتاة بذراعها بحنان، قائلة وهي تنظر

إلى جيمس: «ألا تظن أن هذا النوع من الكلام يمكن أن ينتظر إلى ما بعد؟ إن هذا ليس وقت تعنيف كاترين في الوقت الذي لا نعرف فيه شيئاً عن الظروف.»

تحول ينظر إليها بعينين باردتين وهو يقول: «أكون شاكراً لو بقيت خارج كل هذا. إن الطريقة التي أتحدث بها إلى كاترين هي شأني الخاص. وبصراحة، يا سارة لو كنت مكانك لاهتممت كثيراً بما أقوله الآن.»

تملكها غضب عارم لترد عليه قائلة: «واكون شاكرة لك لو احتفظت بنصائحك لنفسك. إنني امرأة ناضجة ويحق لي التعبير عن آرائي في أي وقت وبأية طريقة أختارها. إنني أرفض الوقوف جانباً بينما أنت تسيء إلى كاترين في الوقت الذي يبدو عليها بجلاء الوقوع تحت ضغط نفسي بالغ.»

قال وهو يلقي نظرة ساخرة على جسدها المتوتر تحت قميصها الأزرق المرقط: «إنني أسلّم معك بأنك ناضجة جسدياً تماماً، يا سارة. ولكن، عقلياً؟» وهز رأسه وهو يقف بقامته الطويلة متعجرفاً يوالي طعناته أعمق فأعمق في قلبها المكسور وهو يتابع: «ما زال أمامك شوط طويل لكي تتعلمي ما معنى أن تكوني امرأة.»

اهتزت من شدة الهياج وهي تقول: «كيف تجرؤ... كيف تجرؤ على هذا الكلام بعد الليلة الماضية؟» وأخذت تفرك يديها غضباً وتفردهما بجانبيها. ودّت لو تصيح وتصرخ.. أن تضربه ليسترد كلمات التعيير تلك. ولكنه كان أقوى منها. لقد كانت تحبه، ولكنه، لم يكن ليعبأ بها. وحين تتصارع إرادتاهما فقد كان هو الرابح دوماً وهي الخاسرة.

وقفت كاترين بينهما وهي ترتجف وقد شحب وجهها: «كفى.. كفى. لا أستطيع أن أسمع جدالاً أكثر من ذلك... لا أستطيع! يكفي ما حدث عندما وصلنا إلى بيت فيليب. لقد ثارت أمه عليه. ولقد رفضت أن تدعني أبقى في البيت. لقد طلبت منه أن يتخلص مني بأسرع ما يستطيع وإلا فلن تتكلم معه إطلاقاً بعد ذلك.»

ضحكت بمرارة وقد تدفقت الدموع على وجهها وهي تتابع: «ولم يأخذ الأمر وقتاً طويلاً لكي يوافق. أظنه كان قد ابتدأ يراجع نفسه طوال الطريق وذلك من الطريقة التي كنا نتجادل فيها. ولكنني لا أستطيع أن أحتمل رؤيتكما تتجادلان أنتما معاً.»

قال جيمس: «لا تهتمي فلن يكون هناك جدال آخر يزعجك. لقد قلنا، أنا والآنسة مارشال، كل ما يمكن أن يقال.» لقد كان تمالك جيمس لنفسه غريباً. عرفت منه سارة مبلغ السهولة التي أزاحها فيها من ذهنه. لقد رمقها بنظرة باردة عابرة وكأنها غريبة عنه تماماً. وللحظة واحدة، استقرت أنظارها على وجهه وقد بان في أعماق عينيها الشوق، لو كان قد وجد وقتاً ينظر إليها. ولكنه لم يفعل. لم يهتم مقدار ذرة بها أو بشعورها أو بالحب الذي تكنّه له. لقد قال لها الليلة الماضية، (خذي وأعطي) حسناً، لقد أعطته كل شيء، حتى قلبها، وقد أخذ هو منها كل شيء ليلقي به بعيداً.

قال هو مخاطباً ابنته: «إنني فقط أريد أن أعلم لماذا فعلت ذلك يا كاترين. ما الذي جعلك تهربين بهذا الشكل؟ هل السبب أنني فعلت شيئاً لم يعجبك، أم أنني لم أفعل شيئاً تريدينه؟»

قالت: «إنني... ربما. لا أعرف بالضبط.» ونقلت نظرها بيأس بين أبيها وسارة وقد بدا الاعتذار في تعبيرات وجهها، وهي تستطرد: «لم أكن أقصد أن أسبب لكما الكدر يا أبي، صدقني. لا أدري ما الذي حدث لي. لقد كنت في غاية الحماقة.» وغصت بريقها: «لقد كان تماماً شيئاً قالته الآنسة مارشال. ظننت... ظننت... أوه يا أبي!» وألقت بنفسها بين ذراعي أبيها وهي تنشج باكية.

احتضنها وهو يربت على ظهرها مهدئاً، ولكن عندما رفع عينيه لتلتقيا بعيني سارة من فوق رأس ابنته، لم تكن في ملامحه أية رقة وهو ينظر إليها متوعداً، لتشعر هي بأن آخر قبس من الأمل في أن تستقيم الأمور بينهما، قد خبا.

استدارت سارة لتعود إلى السيارة، وهي تشعر بالألم يستفحل بها حتى يكاد يقطعها إرباً. ليس فقط لاقتناعها بأن جيمس قد استخدمها لإرجاع ابنته فقط، ولكن لأنه سيظل يلومها على الدوام لما حدث لابنته. إنها ستبقى ممقوتة في نظره إلى الأبد ومهما قالت فلن يغير فكرته عنها. وفجأة، شعرت بأنها غير متأكدة من استمرار قدرتها على المقاومة.

تردد في أنحاء الممر صدى أحاديث مختلطة سرعان ما هدأت بعد أن همست إحدى الفتيات محذرة. ووقفت سارة خارج الباب المؤدي إلى الغرفة التي كانت تشترك فيها كاترين مع فتاتين أخريين، ثم ما لبثت أن اتخذت طريقها إلى غرفتها الخاصة. أغلقت الباب وأخذت تتطلع إلى ما حولها، متأملة في الأثاث الذي كان مألوفاً لديها. هل هي

مسألة أيام فقط منذ كانت في هذه الغرفة لآخر مرة؟ كانت تعرف ذلك، ولكن تلك الليلة التي وجد جيمس فيها طريقه ليقتحم غرفتها ويقلب حياتها رأساً على عقب، كانت تلك الليلة تبدو بعيدة جداً. وتنهدت بعمق وهي تدرك أنها تعود إلى الشيء الذي سبق وعاهدت نفسها على تركه نهائياً، ألا وهو التفكير فيه. ولكن ذلك كان مستحيلاً، خصوصاً وقد اضطر إلى أن يمضي الليلة في الفندق مع بقية فتيات المدرسة.

لقد مرت به سارة وهي خارجة من غرفة الطعام لتسمعه يعبر عن سخطه لعدم حصوله على تذكرتي سفر في الطائرة العائدة تلك الليلة. وكادت تشعر بالرغبة في الوقوف لتقول شيئاً أو ربما تعرض العون. ولكنه كان حتماً، سيقطعها إرباً. لقد بذلت جهدها كله في صعود السلالم دون أن تنهار. كان كل ما يهمها الآن هو أنها، اعتباراً من بعد غد، لن تكون مجبرة على رؤيته مرة أخرى. وكان هذا نوعاً غريباً جداً من العزاء.

فتح الباب فجأة لتستدير هي دهشة لتحملق في الشخص الفارع القامة الذي وقف أمامها. وللحظة واحدة، تجمد العالم حولها وكأنما كان كل شيء يحبس أنفاسه انتظاراً لما سيحدث. ودخل هو ثم أغلق الباب خلفه لتقول له هي بلهجة حادة: «اخرج.»

ابتسم هو ببرود وهو يجتاز الغرفة ثم ألقى عليها نظرة متعجرفة وهو يقول: «ليس ثمة وقت لأي سخط أو شجار يا سارة، فليست هذه هي المرة الأولى التي تجمعنا معاً في غرفة واحدة، فاعفيني من ذلك من فضلك.»

قالت وهي تشعر بنفسها على وشك أن يفجرها التوتر لتتناثر إلى شظايا: «ماذا تريد؟»

قال: «قد أسافر في الصباح دون أن أقول لك وداعاً. أليس كذلك؟ وهذا لا يحسن بعد كل الذي جرى بيننا في الأيام القليلة الماضية.»

أعادت كلماته اللون إلى وجهها الشاحب. لقد سبب لها حديثه الذي ينضح بالازدراء، ألماً هائلاً. ولكنها لم تشأ أن تظهر له كم آلمتها كلماته تلك.

قالت: «إذن، فإن ليلة واحدة قد انتجت عرضاً للسلوك المهذب. أليس كذلك؟ لشد ما يشعرني هذا بالزهو، يا جيمس، الزهو لتكليف نفسك بتخصيص بعض من وقتك لي. لا بد أن سلوكي كان أفضل مما تصورت لأستحق هذه المكرمة منك.»

صعد الدم إلى وجنتيه وهو يقول: «إنني لم أحضر إلى هنا لتبادل الشتائم، يا سارة.»

قالت: «كلا؟ ولماذا جئت إذن؟» ومالت برأسها وهي تشعر بالسرور لأنها لم تكلف نفسها عناء تغيير ثوبها الجميل. فقد كانت في حاجة إلى الشعور بالثقة التي كانت تستمدها من مظهرها الحسن. بحاجة إلى ذلك في معركتها الأخيرة. واستطردت: «لا إهانات إذن؟ هذا يجعلني أتساءل عما تريده في مثل هذه الساعة المتأخرة.» وألقت نظرة على ساعة يدها، ثم إليه وهي تشعر بخفقات قلبها. ما كان لها أن تستفزه بهذا الشكل. ما كان لها أن تثير غضبه. ولكن الاغراء لهذا الفعل كان أقوى من أن يمكنها مقاومته. وتابعت: «طبعاً أنت لم ترجع لتمضي بضع لحظات؟»

وأخذت تقيسه بأنظارها بينما هو واقف يتلقى الإهانات. ثم تابعت وهي تتصنع الابتسام بابتهاج: «حسناً، شكراً لك ولكن، كلا.. إن مرة واحدة هي كافية يا جيمس.» وأدارت له ظهرها وهي تسير نحو الباب تفتحه لتطلب منه الخروج، ولكنها لم تخط أكثر من خطوتين أو ثلاث لتجد نفسها وقد أخذها بين ذراعيه وهو يقول: «لا تديري إلي ظهرك، أيتها السيدة، بعد أن تقولي ذلك!»

قالت: «ولماذا؟ هل أجرح أنانيتك لو حاولت الرفض؟» ودفعت رأسها إلى الخلف ليتناثر شعرها على كتفيها، بينما كانت عيناها تشتعلان وهي تتابع قائلة: «أوه، لقد استمتعت بتلك الليلة الماضية، يا جيمس. إنك رجل ماهر ومقتدر. لهذا، إذا كنت في حاجة إلى من يشهد لك بذلك فلا تتردد في الاتصال بي. ولكن، بالنسبة إلى إعادة العرض، أظن أنني سأجتاز الامتحان. والآن، دعني أذهب من فضلك.»

قال: «أدعك تذهبين؟ لقد كان احتجاجك في منتهى الجمال. ولكن، لماذا غلب عليّ الشعور بأن قلبك لم يكن يشاركك ذلك، يا سارة؟» وزاد من احتضانها وهو يقول متابعاً: «هل أنت متأكدة من أن هذا ما تريدينه حقاً؟»

قالت: «نعم، يا إلهي، ولكنني لم أدرك تماماً من قبل كم أنت مخادع! هل سمعت ما قلت؟ والآن اتركني!»

قال: «ولماذا أفعل ذلك عندما أكون متأكداً من أنني أستطيع تغيير عقلك؟» وانحنى يحاول تقبيلها، ولكنها أدارت رأسها وقد ملأها الألم لمعاملته تلك لها. وقالت: «إنني أعني ما أقول، يا جيمس. دعني أذهب الآن.»

قال: «وماذا لو أنني رفضت؟ ما الذي ستفعلينه، يا آنسة مارشال؟ تزيدين من احتجاجك؟» وابتسم ببرود، وهو يحدق في اللون الوردي الذي كسا وجهها.

فجأة أدركت سارة أن ذلك أصبح أكثر من مجرد صراع بين إرادتين. فقد كان يعني ما يقول. إنه يريد أن يستعمل كل ما يملك من حيل ومهارة في سبيل أن يأخذها بين ذراعيه. وشعرت للحظة، بالدوار لمجرد هذه الفكرة. ولكن فكرة ما، ما لبثت أن ومضت في ذهنها لتبعث قشعريرة باردة في جسدها. لماذا يكلمها الآن برقة بعد أن أبدى لها قبلاً كل ذلك الجفاء؟ هل لأنها جرحت كبرياءه بما قالته له من قبل؟

سحبت نفسها فجأة من بين ذراعيه دون وعي منه وهي تقول: «لقد قلت كلا وأنا أعني هذا تماماً، يا جيمس. هل في كلامي هذا ما يصعب فهمه؟ أم أنك أنت أيضاً تعاني ما يعاني منه رجال كثيرون وهو... الصمم عند اللزوم؟» وضحكت بمرارة وهي تتابع: «أظنك دهشت لذلك. لماذا؟ ألم تتصور أن أي رجل آخر قد يكون استعمل معي نفس الطريقة؟ ولكن، كلا بالطبع. ليس بالنسبة إلى سارة مارشال المسكينة، المعلّمة العانس. ما الذي تعرفه هذه عن الرجال؟ أرى أنك كنت تظن أنك أسديت إليّ معروفاً الليلة الماضية. أليس كذلك؟ لكي تمنحني بعض الذكريات لأختزنها لشيخوختي.»

ضحكت مرة أخرى بشيء من الهيستيريا. وعضت على شفتها وهي تهز رأسها بعد أن أبدى حركة كمن يريد أن يمسك بها. وقالت: «كلا. لا أريدك أن تلمسني. لقد استمتعت

الليلة الماضية، إذن، فلنعتبر أننا متعادلان، أليس كذلك؟ ولننته من كل هذه المسألة القذرة بشيء من الكرامة.»

استدارت تفتح الباب لتدعه يخرج قبل أن تنهار كلياً، ولكن لم يبد عليه أنه ينوي الخروج. وقال: «لم يكن لكل هذا أن يحدث لو أنك تصديت للشيء الذي يعاودك على الدوام، يا سارة. ليس في إمكانك أن تستمري في الاختباء من الماضي. لقد رأيت ماذا كان تأثيره عليك. ليس عليك فقط، بل على آخرين كذلك. وإذا كنا نستعرض الحقائق الآن، فلماذا لا نضيف حقائق أخرى إلى القائمة، ثم يصفو الجو مرة، ليشمل كل شيء؟»

اهتزت أصابعها وهي تضغط الباب بشدة عليها ليبرح بها الألم، وهي تقول: «ما حدث لي في الماضي ليس من شأنك اللعين.»

قال: «كلا؟» وبسرعة أفزعتها، أمسك جيمس الباب ثم أغلقه جيداً وقد تألقت عيناه لحظة التقتا بعينيها، وهو يتابع قائلاً: «أريد أن أقول إن ذلك من شأني تماماً. فقد كانت ابنتي هي التي أثرت عليها بشكل ما.» ورفع يده يمنعها من الاعتراض: «لا تزعجي نفسك. لقد سمعت كل ما ستقولينه من قبل. وسمعت أيضاً ما قالته كاترين عندما سألتها عن سبب هربها. إنني أسلّم بأنها لم توضح كل شيء. ولكن، كان من الجليّ أن اللوم يقع عليك كما سبق وتوقعت أنا. ولهذا أظن أنني أستحق بعض الأجوبة. أليس كذلك؟»

قالت: «إنك لا تستحق شيئاً يا جيمس.. لا شيء، إلا إذا كنت تحسب الليلة الماضية نوعاً من الأجرة لذلك. إن

الماضي هو من شؤوني الخاصة، وليس لك أو لغيرك علاقة به.»

هنا بلغ به الغضب حده وقال: «هنا، أنت مخطئة.» وما لبث أن حاول ضبطه وهو يتابع: «لقد اشتركنا في أشياء كثيرة الليلة الماضية، يا سارة، فلماذا تجدين من الصعوبة أن تشاركيني في هذا السر الكبير كذلك؟»

كان في صوته الساخر نبرة تحد أخرجتها عن طورها. لقد لبثت طيلة النهار تحاول أن تهدىء من آلامها التي كادت تمزقها. ولكنها الآن تشعر بالحدة، فابتعدت عن الباب. كانت حركاتها متصلبة مضطربة وقد التوت يداها في ثنايا تنورتها وكأن كل الحواجز قد سقطت أخيراً ليعود الماضي بكل زخمه وكراهيته و«قرفه» مرة واحدة إلى الحاضر.

قالت: «إذن، فإنك تريد أن تشارك فيه؟ في ماضيّ أنا، أليس كذلك يا جيمس؟ تريد أن تعلم ما الذي جعلني هذه المرأة التي أنا هي الآن؟» وأطلقت ضحكة فارغة دون أن تعي مبلغ اجفاله من مقدار المرارة في ضحكتها تلك وهي تستطرد: «ما الذي جعل الآنسة مارشال تصبح هذه العانس الظريفة؟ أوه، دوماً كنت أسمع مثل هذه التساؤلات ولكنني لم أجب عنها حتى الآن. ولكن، ربما كنت محقاً في أن هذا هو الوقت المناسب لايضاح الأمور.» ورفعت عينيها تقابل نظراته. كان وجهها شاحباً إنما هادئاً لدرجة غريبة وهي تتابع: «لقد اغتصبت عندما كنت في العشرين من عمري. هذا هو السر الذي كرهت أن أشارك أحداً فيه. ولهذا، يمكنك أن تستمتع بهذا الشرف.»

تمتم: «سارة... إنني...»

إنها لم تر جيمس من قبل بمثل هذا العي في النطق. لقد بدا وكأن ضربة قد أصابته. كان العبوس يكسو وجهه وعيناه من القتامة بحيث صعب عليها رؤية ما فيهما من تعبير. بماذا كان يفكر؟ يشعر؟ بالاشمئزاز، بالشفقة، بالازدراء؟ لم يكن لديها أية فكرة ولا رغبة في أن تعلم.

قالت بهدوء: «وماذا عنك؟ هل أنت مسرور لأنني أخبرتك؟ شاركتك بهذا السر؟ أم لعلك تريد أن تعرف التفاصيل المثيرة؟ حسناً، إنني آسفة جداً يا جيمس، ولكنني أظن أن هذا هو كل ما أنت في حاجة إلى معرفته.» وسكتت فجأة وهو يجتاز المسافة القصيرة التي تفصلهما، ليمسكها بكتفيها ضاغطاً بأصابعه وهو يقول: «هذا يكفي. إنني لا أريد تفاصيل.» وهزها مرة واحدة، ثم نظر إلى يديه اللتين كانتا تمسكان بكتفيها، وما لبث أن أرخى قبضتيه وهو يبتعد متخللاً شعره الأسود بأصابعه وكأنما شعر فجأة، بالخوف من لمسها. لماذا؟ هل لأنه عرف الحقيقة، فلم يعد يحتمل التفكير في لمسها؟

اغرورقت عيناها بالدموع، ومشت إلى النافذة تتطلع منها دون أن ترى شيئاً، وهي تتمنى، كما تمنت من قبل، لو أن في إمكانها محو الماضي. ولكن، هل كان في إمكانها ذلك؟ هل يمكنها تغيير ما حدث؟ لقد تعلمت فقط أن تعيش مع ماضيها ذاك ولكن هذا صار يبدو الآن أكثر صعوبة.

«إنني آسف يا سارة.» وبعثت نبرات صوته الألم في

نفسها. وشدّت قبضتيها حتى غرزت أظافرها في راحتيها، وذلك لكي تتمالك ما قد بقي من أعصابها. هل قصد بكلامه أنه كان آسفاً لما حدث، أم لجعلها تخبره عنه؟ إنها لم تعرف.. حتى عندما سمعت صوت الباب يفتح، لم تحاول أن تسأله. لقد تركته يرحل دون كلمة إذ لم تستطع أن تفكر بكلمة تقال لكي تستوقفه.

الفصل الحادي عشر

«أريد أن أشكركم جميعاً لأجل الحفلة والهدايا و... أوه، حسناً، لأجل كل شيء!» وأخذت ستيفاني جاكوب توزع ابتساماتها بين المجموعة، ثم مسحت دمعة سالت على خدها وهي ترفع كأسها قائلة: «نخب المدرسة والفتيات وخصوصاً سارة التي شجعتني على أن أترك العمل بعد أن تحدثنا عن ذلك طويلاً.»

ابتسمت سارة وهي تشارك بقية المعلمات في رفع كأسها. كان الشراب بارداً وهي تأخذ منه رشفة. وفجأة، تركت الكأس على المائدة واستدارت تتطلع من النافذة. ولكنها لم تستطع رؤية الكثير من تلك المنطقة الريفية التي كانت تمتد إلى مسافة بعيدة وراء ملاعب المدرسة. لقد رأت الجبال والسهول التي كانت تتألق بلون شروق الشمس. إنها لم تتناول شراباً منذ الوقت الذي أمضته مع جيمس في جبال «البيرينيه». والآن، ها هي ذي الذكريات التي حاولت طردها من تفكيرها، تندفع إلى ذهنها مرة أخرى.

جاءها صوت ستيفاني التي تركت المجموعة لتأتي وتقف قربها لتقول: «سارة، هل أنت بخير؟»

كان يبدو على وجهها الجميل الكدر. وحاولت سارة الابتسام. وهي تقول: «طبعاً، إنها فقط أحلام اليقظة لا غير.»

قالت المرأة الشابة: «هل هي عن جيمس ماك أليستر؟»

www.rewity.com

وابتسمت وهي ترى دهشة سارة وتابعت قائلة: «لا تنكري ذلك يا سارة. لقد أصبحنا، أنا وأنت صديقتين في الأسابيع الأخيرة. وقد لاحظت كيف كنت تمضين أوقاتاً غير عادية وكأنك تتذكرين أشياء تؤلمك. هل وقعت في غرامه عندما ذهبتما معاً تفتشان عن كاترين؟»

أومأت سارة برأسها قائلة وقد توترت ملامح وجهها: «نعم... إنني.. إنها حماقة، أليس كذلك؟ أعني بالنسبة إلى امرأة في مثل سني يجب أن تعرف...»

قالت ستيفاني: «السن ليس لها علاقة بذلك. إن الذي لم أستطع أن أفهمه هو، لماذا لم تتبعي أنت ما نصحتني به عندما كنت أحاول أن أترك وظيفتي لأتعرف إلى شيء من العالم؟ لقد أخبرتني أن أتطلع دوماً إلى المستقبل لكي لا أجد نفسي في وضع أندم فيه على عدم القيام بشيء ما. وتبدو هذه نصيحة طيبة لمثل حالتك هذه أيضاً.»

قالت سارة: «ماذا تقترحين إذن؟ أن أتصل به هاتفياً لأخبره أنني غارقة في حبه بجنون؟» وهزت رأسها. كان شعرها البني اللامع يتألق في أشعة الشمس المتدفقة من النافذة، وهي تتابع: «لا أظن ذلك! إن جيمس ماك أليستر لا يهتم بي مثقال ذرة.»

قالت ستيفاني وقد لمعت عيناها الزرقاوان بالرغبة في الكفاح: «أحقاً ذلك؟ لماذا عدل إذن عن أن ينقل كاترين من المدرسة؟ ولماذا لم يحقق عزمه في أن تطردي من المدرسة؟ وتقولين إنه لا يهتم بك؟»

قالت سارة بضعف: «ربما هو لا يظن أن الأمر يستحق ذلك. وبالنسبة إلى تركه كاترين هنا، فانا أتصور أن

لكاترين دخل في ذلك. فهي مستمتعة بصحبة زميلاتها هنا، ولا بد أنها رفضت تغيير مدرستها.»

قالت ستيفاني ساخرة: «وأنت أحببت أن تتصوري أن جيمس ماك أليستر، نفس جيمس ماك أليستر الذي بدا لي أنه لا يعتبر ولا يقبل أي رأي آخر عدا رأيه في حياته، هذا الرجل ينحني أمام تمنيات فتاة في الخامسة عشرة من عمرها.» وهزت ستيفاني رأسها ليتناثر شعرها الأسود على وجهها، ودفعته هي إلى الوراء بضجر: «لا تفسير لهذا إلا أنه فعل كل ذلك لأجلك، يا سارة. لأنه يهتم بك فعلاً!»

عبست وهي تسمع رنين الجرس ينبيء بابتداء دروس بعد الظهر. وقالت: «حسناً، فلنعد إلى (حجر الرحى). ما زال أمامي ثلاثة صفوف، لكي أنتهي من هذا كله. ولا تعليم بعد الآن، إذا تحققت الأمور كما خطط لها. ولكن، عديني يا سارة، أنك ستفكرين في ما تحدثنا عنه. لا تخافي من متابعة ما تريدينه. فإن الحياة قصيرة.»

ذهبت قبل أن تستطيع سارة الرد. وتحولت عن النافذة ببطء، وهي تتمنى لو كانت الأمور بمثل السهولة التي تظنها ستيفاني. وتصورت ردة الفعل عند جيمس وهي تتصل به هاتفياً لتعترف له بحبها وأن الحياة من دونه لا تساوي شيئاً لديها. إنه إما أن يقتلها بسخريته الباردة، وإما أن يضحك منها... وهي لا تستطيع احتمال الأمرين. لقد مضى الآن ثمانية أسابيع على آخر مرة رأته فيها. ثمانية أسابيع طويلة موحشة لم تخفف من آلامها. كل ما تريده الآن هو أن تعيش حياتها كأفضل ما تستطيع. يساعدها على احتمال ذلك، ذكريات الأيام القليلة التي أمضياها معاً.

كانت فتيات صف السنة الثالثة في هرج ومرج في حمى العطلة القادمة، مما وجدت سارة مشقة بالغة في الاحتفاظ بانتباههن، وذلك بتقسيمهن جماعات يعملن في الكلمات المتقاطعة التي أمضت معظم ساعات المساء السابق في تقسيمها. وتجاهلت الهمسات والضحكات بينهن إذ كانت تتفهم مبلغ شعورهن بالشوق لاقتراب العطلة الصيفية وإن كانت هي لا تشاركهن شعورهن ذاك، ذلك أنها يمكنها أن تشغل ذهنها أثناء التعليم، ولكن التفكير في الأيام الفارغة الآتية أشعرها بما يقرب من اليأس. وأغمضت عينيها تخفي ألمها، لتفتحهما فجأة وهي تشعر بباب غرفة الصف يفتح.

«جيمس!» هل كان هو صوتها حقاً الذي لفظ اسمه؟ ونظرت غير مصدقة وقد توقفت أنفاسها... هل كان هو جيمس حقاً واقفاً هناك في الباب؟ وهزت رأسها وهي تتساءل عما إذا كان استغراقها في عملها ذاك، قد وضع هذا التصور في ذهنها. ولكن، عندما تكلم، عرفت أنه هو حقاً..

قال: «أريد أن أتكلم إليك يا سارة.»

انه تماماً كما كان في الأيام الخوالي... وفي صوته نفس اللهجة الباردة المتعجرفة ونفس الثقة بالنفس!

وقفت سارة تبادله النظر بوجه بارد وهي تهز رأسها قائلة: «عدا عن أن لا مواضيع بيننا لنتحدث فيها، فإن هذا الوقت غير مناسب لذلك. فهذا وقت إعطائي الدرس، يا سيد ماك أليستر. ولهذا أكون شاكرة لك جداً إذا أنت خرجت.»

قال: «مرة أخرى؟ أظنك تعودت أن تطلبي مني الخروج، يا سارة. وإذا لم تحاذري يمكن أن أسبب لك الازعاج.»

ونظر إلى ما حوله متطلعاً في وجوه الفتيات اللواتي استدرن نحوه بفضول متخليات عن حل رموز الكلمات المتقاطعة في غمرة هذا الحدث غير العادي.

قال: «حسناً، من منكن انتهت ورقتها هنا؟»

رفعت إحداهن يدها في مؤخرة الصف، قائلة: «أنا يا سيدي.»

قال: «حسناً، إنك المسؤولة عن الصف إلى حين عودة الآنسة مارشال. مفهوم؟»

«جيمس!» لم تنطق سارة الآن اسمه بذلك النفس المقطوع، وإن كان ثمة غضب بالغ لتصرفه ذاك. وتابعت: «ليس عندي فكرة عن السبب الذي يجعلك تأتي إلى هنا لتبدأ بإلقاء الأوامر. ولكن دعني أخبرك بأنني لا أستطيع الصبر على ذلك. والآن، أخرج من فضلك.»

قال: «لا أظنني سأفعل. لقد أخطأت في الخروج مرة من قبل وليس في نيتي ارتكاب نفس الخطأ مرة أخرى.» ونظر إلى ما حوله، ثم سار بهدوء إلى كرسي خالٍ وجلس عليه وهو يتابع قوله: «سأنتظر هنا إلى أن ينتهي الدرس وتتحدثي معي يا سارة. يمكنك أن تتابعي عملك وكأنني لست هنا.»

لو أنها فقط، تستطيع أن تتظاهر بأنها ليست في نفس الغرفة، وبهذا القرب منه بحيث لا يستلزم سوى عدة خطوات لكي تلمسه. وأحست بالخدر في أصابعها رغبة في تلمس يديه. وجلست فجأة شاعرة بالهزيمة. ذلك أنه لا الوقت ولا المكان كانا مناسبين لأن يقود، عادة، إلى إحدى مشاجراتهما المتكررة. والتفتت إلى الفتيات تقول:

«حسناً، يا بنات. يمكنكن متابعة العمل. وأي واحدة تجد نفسها مقصرة يمكنها أن تسأل. إذ قد توجد كلمة أو اثنتان في القطعة غير مألوفة لديكن.» وسرّت سارة وهي تلمس ثبات صوتها على الرغم من شعورها وكأن شيئاً في الجو يسبب لها الاختناق البطيء. إنها تشعر بجيمس يرقبها... تشعر بنظراته تلك وكأنما تلمسها بيدها.

ارتفعت عيناها إلى حيث كان يجلس، لتشعر بقلبها يكف عن الخفقان وهي ترى الرقة والدفء يكسوان ملامحه. وبدا وكأن الوقت توقف حين تلاقت أنظارهما لحظة. عند ذاك، وجهت إليها إحدى الفتيات سؤالاً، ليعود كل شيء إلى ما كان عليه. وكان السؤال: «رقم ثلاثة، أفقياً، يا آنسة مارشال منطقة جبلية تشكل حدوداً طبيعية. إننا لم نعرف ما هي. هل يمكنك اعطاءنا إشارة أو ضح لذلك؟»

لماذا وضعت هي هذا في الكلمات المتقاطعة؟ هل كانت أفكارها مركزة إلى جيمس بحيث أنها لم يكن في استطاعتها محوه من ذهنها حتى أثناء العمل؟

أجابت: «إنني...» ولم يمكنها الشعور بالحرج من العثور على الكلمات المناسبة بعد أن نظرت عبر الغرفة لتراه يبتسم. لقد عرف أنها لم تتمكن من نسيانه ونسيان ما كان بينهما. وقال: «جرّبي «البيرينيه» ولا بد أن تكون هي الكلمة المناسبة، أظن هي الكلمة التي كانت الآنسة مارشال تفكر فيها حين وضعت لوحة الكلمات المتقاطعة.»

حمل صوته العميق ثروة من المعاني وهو يتكلم. وبعثت لهجته الدافئة رجفة في أوصال سارة. فقفزت في كرسيها

ليضطرب وضع الكرسي تحتها وقد تضرج وجهها وهي تسمعه يضحك بهدوء. وقالت: «سأكتب على السبورة الكلمات التي قد تجدن صعوبة في تهجئتها.»

أخذت الطبشورة وأدارت ظهرها إلى الصف. ولكنها أجفلت حين تكلم جيمس مرة أخرى، وقد بدا صوته الآن أكثر دفئاً وهو يقول: «هل يمكنك تهجئة هذه الجملة لأجلي من فضلك؟ إنها (أنا أحبك...) بالفرنسية طبعاً.»

سقطت الطبشورة من يدها المرتعشة. وبحركة تلقائية انحنت سارة لتلتقطها وهي تشعر بالدم يتدفق إلى رأسها. وجاءها صوته يقول الجملة ذاتها بالفرنسية وهو يعقب: «هذا إذا لم أكن مخطئاً، أليس كذلك يا آنسة مارشال؟» وضحك بهدوء وقد تركزت أنظاره على وجهها المتضرج متابعاً: «إنني لست متأكداً من صحة اللفظ. ربما يمكنك ترديدها قبل أن تكتبيها على السبورة.»

لماذا كان يفعل ذلك؟ لماذا يتعمد أن يجعل الأمر يبدو وكأنه يريد أن يقول إنه يحبها؟ وأمسكت الطبشورة بين أصابعها، وهي منتبهة إلى أن الفتيات يستمعن إلى كل كلمة تقال، ثم قالت: «إن هذا صحيح تماماً، يا سيد ماك أليستر. ليس ثمة خطأ في لفظك.» كان صوتها خشناً يفضح اضطرابها. وابتسم هو برقة وقد التقت نظراته الهادئة بنظراتها وهو يقول: «ما زلت غير مطمئن مئة بالمئة إلى سلامة لفظي. فهل لك يا آنسة مارشال أن تتفضلي بقول هذه الجملة لكي اتثبّت منها؟»

هل كانت هذه لعبة منه أم أنها طريقة جديدة لتعذيبها؟ لم يكن لديها فكرة.

فجأة، لم تعد تهتم بشيء وهي تتفرس في وجهه عبر الغرفة. إنها تحبه! ولا يهم اللغة التي تعبر فيها عن حبها هذا. فالنتيجة تبقى هي هي، والروعة هي نفسها ما دامت تقولها له. وقالت بالفرنسية: «إنني أحبك.»

ما كاد يُسمع صوتها في جو الصمت الذي ران فوق الفتيات. وأخذت نفساً قصيراً وهي تشعر بقلبها يخفق بعنف وهي تردد بالفرنسية ببطء: «إنني أحبك يا سيد ماك أليستر.» قالت ذلك وهي تنظر إليه وقد تجلت أحاسيسها في عينيها.

بدا عليه وقد توقفت أنفاسه وقد ظهر على ملامحه التوتر الذي يقترب من الألم قبل أن يسترخي فجأة، ثم يبتسم. كانت ابتسامة تحوي من الدفء بحيث أشعرتها باختفاء كل ما كانت تشعر به من برود. وقال بالفرنسية: «إنني أحبك يا آنسة مارشال. كيف ترين لفظي؟»

قالت: «إنني... انت... رائع، رائع تماماً!»

قال وهو يقف متجهاً نحوها: «رجوت أن يكون ذلك.» وأخذ من يدها الطبشورة ورماها جانباً قبل أن ينظر إلى فتيات الصف اللواتي كن جالسات باستكانة، وقال: «والآن، أيتها الفتيات، إنني أعلم أنه يمكنني الاعتماد عليكن في حسن التصرف بينما أتبادل حديثاً مختصراً مع الآنسة مارشال. وأرجو منكن عدم خذلي.»

ثم مد يده يأخذ سارة من ذراعها خارجاً بها من الغرفة ثم أغلق الباب وراءهما قاطعاً بذلك الأحاديث التي تفجرت بين البنات.

قال: «إننا في حاجة إلى مكان نتحدث فيه يا سارة.»

قالت وهي تطرف بعينيها متسائلة عما إذا كان هذا حلماً: «إنني...»

لا يمكن أن يكون هذا حقيقة... لا يمكن أن يكون جيمس هنا حقيقة، خارجاً بها من غرفة الصف.

عاد يقول: «نريد مكاناً منعزلاً يا سارة لكي يمكنني أن أقول ما في نفسي.» كان صوته خشناً وفي عينيه معنى لا يمكنها إغفاله ما لم تكن عمياء.

قالت: «هذا جنون يا جيمس. ليس في إمكانك أن تأتي هنا وتخرجني من الصف. إن البنات في حاجة إليّ.»

قال: «ليس بقدر نصف ما أنا في حاجة إليك، يا حلوتي.»

وأدارها في مواجهته وهو يقول: «لقد اقترفت غلطة يا سارة إذ تركتك في تلك الليلة. لقد ندمت على ذلك في كل دقيقة منذ ذلك الحين. ولن أدع ذلك يحدث مرة أخرى. إنني أحبك يا سارة. وأريد منك أن تعطيني فرصة ثانية لكي أشرح لك سبب تصرفي ذاك، في ذلك الصباح، ولماذا تركت غرفتك تلك الليلة. أخبريني إذن عن مكان نذهب إليه لنتحدث. وإلا فإنني أقسم على أن أتسلّم مقاليد الأمور بيدي.»

نظر إلى ما حوله في الممر الهادىء مبتسماً وهو يقول: «ماذا تظنين رئيستك ستقول إذا هي علمت أن إحدى الموظفات عندها يعانقها حبيبها في ممر المدرسة.»

قالت مصعوقة: «جيمس.. إنك لا تعني.. إنني... هل تعني ذلك حقاً؟ هل تحبني حقيقة؟»

نظر إليها بعينين عميقتين وقال: «إنني أحبك، يا

سارة... صدقيني انني أحبك. ولا أفكر بشيء أكثر من أن أثبت لك كم أحبك.»

نظرت إليه وقد أصاب رأسها الدوار.. لم تستطع أن تستخلص شيئاً من شيء. جيمس يحبها! غير ممكن أن يكون هذا صحيحاً... وإلا، فإنه الاستجابة لكل دعائها.

بدا أنه فهم التشوش الذهني الذي تتخبط فيه فابتسم وهو يقودها بيدها على طول الممر ليخرجا من باب جانبي إلى حيث سيارته كانت تقف. وقال: «ادخلي، يا عزيزتي. سنذهب إلى حيث يمكننا التحدث.» وأغلق باب السيارة، واستدار يأخذ مكانه خلف المقود. وقالت هي: «إنني... إلى أين نحن ذاهبان يا جيمس؟»

أجاب: «لفترة قصيرة فقط على ضفاف النهر. إن المكان هادىء هناك وبعيد عن الأعين الفضولية!» وأومأ ناحية المدرسة وهو يدير المحرك، ضاحكاً من شهقة سارة التي أدركت فجأة أن أكثر بنات صفها كنّ يراقبنهما من النافذة. وهتفت: «كلا... ما الذي سيفكرن به؟»

قال: «أظن أنهن سيفهمن تماماً يا سارة. وحسب خبرتي، فإن الفتيات المراهقات يفهمن بالإشارة.»

قالت: «وهذا ما يقلقني. إنني لن أكون مثالاً طيباً لهن. أليس كذلك؟»

استدار بالسيارة خارجاً من الطريق ليتوجه ناحية النهر. ثم قال: «بصراحة يا سارة، لا يهمني مطلقاً أي مثال نعطيه لهن. إن أمرهن لا يهمني. أنت فقط مدار اهتمامي.»

قالت سارة: «لم أكن لأحلم أبداً أن هذا قد يحدث. لقد

ظننت أن كل ما بيننا قد انتهى، خصوصاً بعدما أخبرتك به تلك الليلة.»

قال: «لقد ظننت أنا هذا بدوري، إنما ليس للسبب الذي ذكرته أنت.» ونظر في عينيها مباشرة وهو يتابع: «إن مسألة اغتصابك لم تؤثر على شعوري نحوك، يا سارة. ربما جعلتك تظنين أن هذا قد حدث عندما تركتك فجأة. ولكن كل ما أستطيع قوله هو انني صدمت لهذا التصريح، ثم شعرت بالندم للطريقة التي تصرفت فيها نحوك إلى حد لم أعرف كيف أعالج الأمر. كنت أتمنى لو كنت أخبرتني بذلك من قبل وإلا لما كنت عاملتك بتلك المعاملة القاسية.»

قالت: «كلا، لقد كان الحق معك في هذه المعاملة.» وابتسمت بحزن وهي تستطرد: «كما كنت محقاً في اتهامك لي ببرود الأحاسيس. لقد سمحت لنفسي بأن أتخذ هذه الطريقة لأنها تناسب الحياة التي صممت على أن أعيشها بعد أن وضعت كل شيء ورائي.»

قال وهو يمسك بيدها: «هذا قول سهل ولكن تنفيذه صعب. إنني أتصور كم عانيت يا سارة.» وسكت قليلاً ثم سألها: «هل تستطيعين أن تخبريني كيف حدث لك هذا الأمر يا سارة؟ أم أن ذكر هذا ما زال يؤلمك؟»

قالت: «كلا... إنه لم يعد يؤلمني. إنني لن أنسى ذلك أبداً. ولكن ذكراه لن تسيطر على حياتي بعد الآن، كما كانت في السنوات الماضية.»

بدت في عينيها نظرة ساهمة وقد شرد ذهنها عبر السنوات وتابعت قولها: «لقد كنت أتممت العشرين من عمري عندما حدث ذلك. في سنتي الثالثة الجامعية، وفي قمة

استمتاعي بالحياة قتل والداي في حادث سيارة وهما في طريقهما إلى زيارتي في عطلة نهاية الأسبوع. لقد أصبت عند ذلك، بانهيار تام. كنت ابنتهما الوحيدة مما جعلني ملتصقة عاطفياً بهما تماماً. فكان فقداني لهما معاً بهذا الشكل، حدثاً مريعاً. وتأخرت نتيجة هذا في دراستي. عند ذلك، عرض عليّ أحد المعلمين أن يعطيني دروساً إضافية لتعويض ذلك التقصير.» وضحكت بمرارة دون أن تنتبه إلى وجه جيمس الذي توترت ملامحه غضباً. وتابعت: «يبدو أن الدروس لم تكن كل ما في رأسه! وقد كنت أنا متأخرة جداً عن زملائي، لذا شعرت نحوه بالامتنان. بدا عليه اللهفة لمساعدتي. وهكذا، عندما دعاني إلى تمضية عطلة نهاية الأسبوع في منزله، قبلت الدعوة حالاً.»

نظرت إلى جيمس لتدرك للمرة الأولى، أن هذا السرد كان مؤلماً له قدر ما كان مؤلماً لها. وقالت: «هل أتابع أم أن الأفضل أن أتوقف هنا؟» فهز رأسه قائلاً: «أريد أن أسمع كل شيء يا سارة، هذا إذا شئت أن تخبريني. إنني أريد أن أضع كل شيء وراءنا مرة واحدة وإلى الأبد.»

أومأت برأسها وقد فهمت ما يعني إن هي أخبرته بكل شيء، فإن كل تلك الروابط بالماضي ستحل من ذاتها. واستطردت: «لقد... لقد كان متزوجاً ولهذا ظننت أن قبولي لدعوته ليس فيها ما يضير. ولكنه، لسوء الحظ اغفل اخباري أن زوجته لن تكون موجودة، إنني لن أطيل في سرد التفاصيل. ولكن عندما عرفت الحقيقة، كان قد فات الأوان. لقد... لقد اغتصبني في منزله، وضحك مني عندما أخبرته أنني سأشكوه إلى الشرطة، وقال أن ليس ثمة أحد يصدق

أنني لم أكن موافقة على ذلك، والنتيجة أن يتلطخ اسمي في الوحل.» وامتلأت عيناها بالدموع وهي تتابع: «وفي النهاية، لم أخبر أحداً، يا جيمس. وهكذا نجا هو من العقاب لخوفي ذاك!»

قال جيمس: «لا تلومي نفسك يا سارة. من يعلم ماذا كان يمكن أن يحدث؟» وضرب قبضته على حاجز السيارة وقد بان في وجهه الإجرام وهو يقول: «أتمنى لو أمسك به لأجعله يدفع ثمن ما فعل بك.»

قالت: «كل ذلك أصبح من الماضي الآن. ولم يعد يهم... ما دمت أنت قلت إنه لا يهمك.»

أغمضت عينيها وقد شعرت بخوف مفاجيء، ثم قالت: «لقد كنت دائماً أخاف أن يكتشف أحد الأمر... انك لم تشمئز مني تلك الليلة عندما أخبرتك، أليس كذلك يا جيمس؟ أريد أن أعرف الحقيقة.»

قال وقد كسا الألم ملامحه: «كلا.. أهذا ما ظننت؟ لم يكن الأمر كذلك. إنني لا أستطيع تفسير ما شعرت به حينذاك. لقد كان مزيجاً من الصدمة والغضب والاشمئزاز من نفسي لأنني حملتك على أن تخبريني بأمر كان واضحاً أنك تخجلين من ذكره. ولكنني لم أشك في صحة ما اخبرتني به قط. ومن ناحية أخرى فقد فسر هذا كل تصرفاتك والأسباب التي دفعت امرأة رائعة الجمال مثلك إلى إخفاء جمالها هذا.»

قالت: «امرأة رائعة الجمال؟ أنا؟»

ابتسم قائلاً: «أنت. لا تتعجبي هكذا. لقد فتنت بك منذ أول مرة رأيتك فيها في يوم اجتماع الآباء. لقد كنت حلوة

ببشرتك الرقيقة وشعرك الناعم مع أنك اجتهدت في إخفاء جمالك.» ومد يده يتخلل شعرها بأصابعه وهو يتابع: «كم تمنيت أن أمسك شعرك هذا بيدي مرة أخرى. لقد كنت أتألم كلما تذكرته منشوراً على وسادتي ذلك الصباح.»

قالت: «حقاً؟ لقد ظننتك نائماً ذلك الحين، عندما استيقظت من النوم.»

قال: «لقد تظاهرت بذلك. ولكنني كنت قد استيقظت قبلك بساعات، بقيت مستلقياً أنظر إليك.»

قالت: «ولماذا لم تقل شيئاً؟» وبان في عينيها الألم وهي تسأله: «ولماذا تصرفت معي بمثل تلك القسوة في الغابة؟ لقد... لقد ظننت أنك... انتهى الأمر بيننا.»

قال: «ذلك ما كنت آمل أن يكون.» وابتسم وهو يراها تشهق عجباً وتابع يقول: «ولكن هذا يثبت كم يخطىء الرجل أحياناً. لقد تعمدت القسوة ذلك الصباح لأنني لم أكن واثقاً من عواطفي. لقد كنت آمل أن ينتهي الأمر. ولكنني أستيقظت ورأيتك فعرفت أن الأمر لن ينتهي بهذا الشكل. لقد كنت خائفاً يا سارة. وهذه هي حقيقة ذلك الوضع.»

قالت: «كنت خائفاً؟ ومم؟»

قال: «خائفاً منك.» وضحك عالياً وهو يتابع: «كنت خائفاً لأنني أدركت أنني سأقع في غرامك. فالأمر لم يعد مجرد جاذبية. لقد سبق وأقسمت عندما ماتت زوجتي أن لا أسمح لنفسي بأن أقع في ذلك الشرك مرة أخرى. شرك الحب. ولكن، عندما أدركت أنني وقعت أخيراً أصابني الهلع في أعماقي.»

قالت: «لا بد أنك أحببتها كثيراً.» ولم تستطع أن تقاوم

الألم الذي شعرت به لدى هذه الفكرة. وسمعته يتنهد قائلاً: «لن أكذب عليك، فقد أحببتها. ولكن الذي شعرت به نحو «روث» كان في الماضي، وقد أصبح الآن مجرد ذكرى، ولا دخل له في ما أشعر به نحوك. لقد جعلني ذلك أخاف من مواجهته مرة أخرى. لقد سبق وأقسمت، كما أخبرتك، أن لا أسمح لنفسي بحب امرأة أخرى، لأفقدها بعد ذلك. إنني لا أدعي بأنني عشت زاهداً طوال تلك السنوات ولكن النساء اللواتي عرفتهن كن يعرفن الباعث لذلك. ولم يحدث أي تورط عاطفي مع واحدة منهن. ثم، جئت أنت وكدت تدفعينني إلى الجنون إذ صرت تجادلينني في نوع معاملتي لكاترين، وبجاذبيتك المثيرة ورقتك الفائقة. لقد أدركت منذ البداية أنك ازعاج لي، وكنت على حق. فأنت إزعاج كبير يا آنسة مارشال.»

نظرت إليه باستياء ساخر وهي تقول: «حسناً، شكراً جزيلاً.» وابتسمت فجأة متابعة: «لا أظن أنني نلت أجمل من مدائحك لي مثل: عانس... الآنسة مارشال الرصينة. الإزعاج الكبير!»

قال: «همم... لا أظن أن تلك النعوت ستصبح حقيقية قبل وقت طويل. والآن، وقد تشجعت أخيراً على التسليم بحقيقة مشاعري، فإنني لا أنوي أن أدع اسمك «آنسة مارشال» لمدة طويلة.»

تنفست سارة بعمق، وعدت إلى العشرة قبل أن تقول: «أتعني أنك تعرض عليّ الزواج؟ دع عنك هذا.»

قال: «ماذا؟»

قالت: «لقد سمعتني يا سيد ماك أليستر! فإذا كان هذا

مفروضاً أن يكون عرض زواج، فهو إذن عرض سطحي. فإما أن تحاول مرة أخرى، أو تدع عنك هذا الأمر.»

جذبها إليه يشد ذراعيه حولها وهو يقول: «إنك ستتزوجين مني، أليس كذلك يا سارة؟ لن أستطيع الحياة بدونك. لقد كاد يصيبني الجنون أثناء الأسابيع الماضية وأنا أحاول إقناع نفسي بأن من الأفضل أن أمضي حياتي بدونك. ولكن ذلك كان كذبة كبرى. إنني في حاجة إليك يا سارة.»

ابتسمت له وقد شعرت نحوه بحب تعجز عن وصفه الكلمات. وقالت: «هل هذا ما تريده يا جيمس؟»

قال: «نعم. إنني أحبك يا سارة وأريدك في حياتي إلى الأبد.»

همست برقة: «وأنا أحبك أيضاً ولا أريد شيئاً سوى أن أعيش معك طوال حياتي.» وسكتت فجأة وقد انتابتها فكرة أقلقتها وقالت: «وماذا عن كاترين؟ أتظنها ستقبل فكرة أن أصبح زوجة أبيها؟»

قال: «إنها مسرورة جداً.» ضحك وهو يرى عبوسها واستطرد: «لقد اتصلت بها هاتفياً الليلة الماضية وأخبرتها أنني سأحضر إلى هنا ولن أعود قبل أن توافقي على الزواج مني. فقالت إن الوقت قد حان لكي أجعل من الآنسة مارشال امرأة مهمة.»

قالت: «ماذا؟ جيمس! إنك لم تخبرها أننا... أننا...»

قاطعها: «اننا أمضينا ليلة معاً؟ كلا يا حلوتي. ليس بالتفصيل. على كل حال لقد كبرت كاترين وشكراً لهربها ذاك. وأظنها استطاعت بسهولة أن تجمع واحداً وواحداً ليساويا اثنين.»

قالت: «كيف لي أن أرفض طلبك للزواج مني إذن. إنني في هذه الحالة سأكون مثالاً سيئاً لها. لقد تكلمت معها عما حدث. ولكنها لم تخبرني أكثر من أنها أدركت حالاً أنها اقترفت غلطة. ومن حسن الحظ أنها كانت من الإدراك بحيث قالت ذلك لفيليب، وربما هذا يفسر تصرفه عندما تركها في «لاشون» عندما اعترضت أمه على ابقائها في منزله.»

ازدردت ريقها وقد شعرت فجأة بالخوف من أن تفسد سعادتهما. وتابعت تقول: «إذا كان ثمة لوم يقع عليّ يا جيمس، في ما حدث، فإنني آسفة.»

قال: «نعم.» وضحك عندما سمعها تشهق، وعاد يقول: «وكذلك أنا، يا سارة. لقد تبادلت مع كاترين أحاديث طويلة مؤخراً، ابتداء من عودتنا إلى انكلترا من باريس. لقد كانت قد كوّنت عني فكرة أنني لا أهتم بها لأنني دوماً مشغول بأعمالي. ولقد صدمني هذا... إنني... إنني لم أكن أدرك ما الذي كنت بسبيله. ولكنني جعلتها تفهم بأنني أحبها كثيراً. وفي النهاية كان الأمر بسيطاً.»

قالت: «إنني مسرورة لجلاء كل شيء. ولكن، كيف أنني تسببت في ما حدث. هل كان ثمة شيء قد قلته؟ إنني إذن لن أسامح نفسي أبداً إذا كان اللوم يقع حقاً عليّ.»

قال: «في الحقيقة، لقد كان شرحاً قمت به أثناء درس كنت تلقينه. كان الدرس عبارة عن ترجمة لشعر غرامي عن الفرنسية. وقد قلت أنت إن الحب هو أهم المشاعر الإنسانية، وإنه شيء نفيس يجب أن يتقدم كل شيء آخر. ولا بد أن هذا الكلام كان له وقع قوي في نفسها إذ كانت تمر بمرحلة تعسة حين كانت تظنني لا أهتم بها. واتخذت من

هذه المشاعر حجة للهرب مع فيليب. فقد كانت تظن أنه يحبها. ولكن، لسوء الحظ، أو لحسن الحظ، وجدت أن الأمر لم يكن كذلك إلى أن جاءت النهاية سليمة. وأظن أن ما حدث قد لقن كاترين درساً لن تنساه أبداً.»

قالت: «أوه يا جيمس، لم أكن أظن أبداً أن كلاماً غير مؤذٍ مثل الذي قلته في الدرس، يمكن أن يسبب مثل هذه النتيجة. ولا بد أن أكون حذرة في المستقبل.»

قال: «ولكنني أظن أن هذا يعود إلى التلميذ نفسه. تقولين ان الحب هو قبل كل شيء؟» وابتسم لها متابعاً: «أظنني سأستمتع بدرس كهذا، يا معلمتي.»

قالت وقد احمر وجهها: «أظنك أنت الذي كنت أستاذاً في هذا الأمر.»

قال: «أتظنين ذلك؟» وابتسمت سارة وهي تنظر في عينيه مفكرة في أنها ستكون في حاجة إلى دروس كثيرة تتعلمها من جيمس. حبيبها الأول والأخير.

تمت